عادل صوما

لبنانيون في المنسى

الكتاب: لبنانيون في المنسى

التأليف: عادل صوما

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان
ص.ب. ١١/٣١٨١ – ت: ٣٠١٤٦١ – فاكس: ٣٠٧٧٧٥

التنضيد: شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

الطبعة: الأولى ١٩٩٧

مقدمة

تحت العنوان الرئيسي للكتاب، تأتي مجموعة قصص قصيرة، يجمعها خيط واحد هو أنها لوجوه من لبنان أثناء محنته منذ العام ١٩٧٥ حتى ١٩٩٠. وجوه مختلفة الأديان والوظائف والمستويات الاجتماعية والفكرية، تعبِّر عن أحاسيس متباينة مثل اللامبالاة والقهر والضياع والاحساس بالألوهية وأزمة الانتماء وخوف البرجوازية الصغيرة من الاندثار والاجرام ولحظة الوقوع في صفاء الحقيقة المجردة.

بعض هذه القصص نُشرت في صحيفتي «الديار» و«السفير» ومجلة «الحداثة». ولم تنشر كلها في كتاب رغم مرور سنوات على تأليفها، بسبب تعقيدات الأمور المعيشية، وأزمات الهوية والنشر والقراءة والتعامل مع الابداع في عصر الاستهلاك والخوف على المصير، التي تسبب حالة استنزاف عقلي وتشتت فكري ـ

كمعظم الناس ـ تشل القدرة على الكتابة، إضافة إلى سؤال يسأله أي مبدع لنفسه اليوم: ما جدوى إصدار كتاب؟ لكن الدخول في اللعبة أغراني بشدة فدخلت.

وتبقى كلمة شكر للفنان هنري خوري الذي قدم لوحة الغلاف، ودار «الفارابي» التي تبنت هذه المجموعة القصصية ونَشَرَتها في كتاب، فيه وجوهٌ لبنانيةٌ التقطُها من لحظاتها الحياتية الراهنة، وأدخلتها إلى عالم الكلمة والتأمل.

عادل صوما

صغار منسّيون

عندما فتح إبراهيم عبيد الباب، تبخر من دمه أثر الكأسين اللذين شربهما، لأنه لم يفترض، أبداً، أن يطرق أحد موظفيه السابقين باب الشاليه، مساء يوم سبت، مكفهراً ومحتقناً. وبحركة لا إرادية تراجع خطوتين كانتا كافيتين لدخول الموظف الذي أغلق الباب وراءه.

ـ شربل؟! ماذا حدث؟

ـ (بعد تنفس عميق) جئت قاصداً تصفية حساب طال أمده معك.

ـ (بكبرياء المستهتر بمَنْ أمامه) تصفية حساب معي؟!

ـ نعم معك.

ـ (فاهماً ما يقصده شربل) أنت العاقل الرزين صاحب الردود المدروسة.

ـ لا تهين ذكائي.

ـ ما المطلوب يا حضرة الذكي؟

ـ جئت متمرداً على قوانينك ومتحدثاً بلغتك نفسها.

(بعد نظرة فاحصة)

ـ ومسدسك المخفي لقتلي؟!

ـ بعد أن تسمع الأسباب.

ـ أنا الذي استقبلتك وأنت موظف جديد بشرح عصاميتي.

ـ وعملت معك في ظروف استخباراتية بغيضة.

ـ وأين التهمة؟ أنت تعلم ظروف البلد.

ـ وأنت تعلم أنني شريف وأرفض من يسحقني.

ـ وعندما أردتَ العمل مستقلاً، قلت لك: أحب القول الذي معناه دعه يعمل.. دعه يمر.

ـ يمر على زجاج متكسر، ويعمل ولا يصل لنتيجة!

ـ ماذا تقول يا رجل؟

ـ ترسل رجالك ليسرقوا مني ليلاً ما أشتريه منك نهاراً!

ـ كذب. من أقنعك بذلك؟

ـ أصبح الشاطر في بلدنا من يعرف أكثر من الشائعات والأخبار القذرة.

ـ أنت لا تفهم قواعد اللعبة.

ـ وأنت ناجح لأن الناس خائفة.

ـ وتأتي بمسدس لتعترض نجاحي؟!

ـ وهل يستأصل الله الشر إلا بالموتورين أمثالي؟

ـ هذه فلسفة لا أقدر على فهمها.

ـ رغم أنكم تقتلون الناس لأسباب عقائدية!

ـ هذا كثير ولا أقبله.

ـ والناس يعيشون معكم مسحوقون أو كأنهم زبالة على الطريق.

ـ أكرر لك هذا كثير ولا أقبله (وبحركة مسرحية) حتى لو كان بيدك مسدس.

ـ لقد دبرتُ قتلك بإحكام شديد، وأنت تعلم الغابة في الخارج.

ـ والآن؟

ـ هل تصدق أنني لم أعد راغباً في ذلك.

ـ إكتشفت مدى خطئك.

ـ لا تستفزني. لقد شعرت أنني حر.

ـ لا حُر في هذا البلد إلا من يحصل على ڤيزا للسفر.

ـ كلام الخائفين.

ـ صدّقني هذا هو الواقع.

ـ واقع مقرف على أي حال، ولا يستحق أن ألوث يدي من أجله.

ـ المشكلة أن أمثالك لا يريدون فهم اللعبة.

ـ لا أريد أن أفهم. وداعاً.

موت جاسوس

لعل الظروف الأمنية المتوترة والجوية العاصفة التي كانت تضرب بيروت، هي التي منعت كثيراً من الناس من المشاركة في جنازة ودفن انطوان عوّاد.

لكن الكثير من الناس أيضاً قالوا إن الظروف نفسها، قد أسدلت ستاراً كثيفاً على حقيقة مشاعر الناس تجاهه.

أما الأفراد الخمسة، فقد عادوا مع أهله من بعد الصلوات التي تُليت عليه في كنيسة المستشفى، ومراسم الدفن التي تمت في سرعة سريعة، وعيونهم دامية من البكاء.

ـ حظه سيء جداً.

ـ يموت بسبب سيارة مسرعة وليس بسبب القذائف التي كانت تنهمر كالمطر!

ـ وما تزال.

تفرّق المشاركون في الدفن، بعدما تواعدوا على اللقاء مساء في منزل الفقيد، لأخذ الخاطر وشرب القهوة.

أخذ القصف المدفعي يهدأ عند حلول المساء، وبدأت بعض النسوة من الجيران بالتوافد إلى المنزل لتقديم العزاء إلى أمه وأخته، والاعتذار بعدم الذهاب إلى المستشفى والمشاركة في الجنازة بسبب تواصل انهمار القذائف لمدة يومين.

ـ ننفق كالبهائم ونُدفن كالغرباء. قالت الأم.

ـ يبدو يا أم طوني أننا نعيش بالمصادفة.

ـ هل عرفتم شيئاً عن السيارة.

ـ كانت الطرقات خالية، والناس في الملاجىء.

الحكايات التي نُسجت، في الملاجىء وزوايا البيوت، عن السيارة التي دهست انطوان عوّاد، كانت كلها تدور حول الحياة الغريبة التي كان يعيشها.

ـ يُقال إنه جاسوس في المنطقة.

ـ كلام فارغ.. لصالح من؟

ـ يلعب على حبال كثيرة.

ـ لا تنسَ أنه تلميذ مدرسة رسمية وليس مدرسة رهبان.

ـ عنده أصدقاء في الجهات الأخرى.

ـ الرجل ينقل بضاعة بين المناطق لأنه نظيف.

ـ ومن أخبرك بذلك؟

ـ مستحيل أن يتحرك بين المناطق وهو مشتبه فيه.

أمر واحد لم يبح به انطوان عوّاد حتى لأقرب الناس إليه، ومات معه. ولعل ذلك الأمر هو ما جعله، واقعياً، يمشي على الأرض، ويحس كل من يتكلم معه بطعم التراب في كلامه.

«هل ما زلت عند قرارك بترك الجامعة؟» كانت أمه تسأله قبل بداية كل عام جامعي.

ـ العلم في ظروفنا للبنات لأنه سلاحهن الوحيد، ونحن نتدبر أمر أرزاقنا، أو نهاجر.

كانت هذه الواقعية المفرطة تتحول إلى خيال حالم دامع مرة واحدة في السنة، في ليلة

«الكريسماس» فقط. فقد كان يتذكر كيف أنه كان ينتظر «بابا نويل» وهو صغير ليعطيه هديته.

كان ينتظر، مثلما كان يسمع من أترابه، ثم ينام تعباً من الانتظار، ويستيقظ في الصباح ولا يجد أي هدية.

وصلت إلى بيت انطوان عوّاد فتاة متشحة بالسواد، في منتصف العشرينيات من عمرها. طويلة، حنطية، نحيفة، ودخلت من الباب مباشرة متجهة إلى أمه، وكأنها لا ترى شيئاً سواها.

تعانقت المرأة والفتاة، وكانت الدموع الصامتة تنتقل بين خدودهما.

ـ مع احترامي لكل الناس، إلا أنني أعزيك في أنظف شخص في الحي.

ـ شكراً يا ابنتي.

ـ (ناظرة إلى الرجال من حولهما) وأجرأهم أيضاً.

ـ......

لم يفهم الناس من حوله أبداً، لماذا كان يسمع

الإذاعات «المعادية»، أثناء وجود الجميع في الملجأ وقت اشتداد القصف المدفعي. كانوا ينظرون إليه شزراً، وكانت أمه ترجوه أن يغيّر محطة الراديو نحو إذاعة «صوت لبنان*».

ـ أسمع «صوت الجبل*» لأفهم وجهة النظر الأخرى.

ـ الناس يشكّون فينا.

ـ يعيشون كقطيع غنم من الخوف.

ـ أرجوك يا بني.

كانت تربطه بالفتاة المتشحة بالسواد علاقة حب من نوع عجيب لم يتحدث عنه الطرفان أبداً، ويعرفه الجميع من حولهما، لإيمان صامت لدى كل منهما أن لا فائدة من البوح به، على الأقل في ظروفهما غير العادية التي يمرّان بها. كانا شبه متآمرين على انتظار ظروف أفضل.

جلست بجوار أمه وهي تسمع وتشارك في

* الناطقة بلسان حزب الكتائب.
* الناطق باسم الحزب التقدمي الاشتراكي.

الحديث، وذكرى المرة الوحيدة التي أشعّت عيناه فيها بنور الحب ونار الشهوة معاً لا تفارقها.

كانت الأحوال الأمنية متوترة، وكل سكان البناية في الملجأ الذي تحتها. وفجأة سُمع صوت ارتطام قذيفة بالبناية، وأحجار تتهاوى ومن بعدها زجاج يتحطم على الأرض.

ـ مهى وحدها في المنزل. رفضت النزول. صرخت الأم.

وطار هو إلى الطابق الرابع، وأثناء طيرانه إكتشف أن القذيفة أصابت الطابق الثاني. ولمّا وصل إلى شقتها وجدها تقف مذهولة في الردهة بقميص النوم، لأن الباب كان مفتوحاً بفعل الضغط الذي يواكب انفجار القذائف. وانتبهت هي لنظرة عينيه تلك.

ـ هل صار لكِ شيئاً؟ (بصوت مبحوح)

ـ أبداً. (وهي تقترب منه)

ـ المجد والخلود لشهدائنا الأبرار. (وهو ينظر إلى ثدييها النافرين)

ـ شهداء ماذا؟ (وهي تنظر في عينيه)

ـ شـ. . شهداء الحب. (وهو يبلع ريقه)

كانوا يقولون إنّ «جماعتنا تخلصوا منه»، حسب ما ألمح به أحد رؤساء الزواريب في المنطقة، لشخص جاء لتقديم العزاء وتنسّم بعض الأخبار عن أنطوان عوّاد.

ودارت بعض الأحاديث الجانبية عن أمور غير مفهومة، ومصطلحات لا يفهمها سوى خِلدٍ يعيش تحت الأرض.

وقال بعضهم إنّ «جماعتنا أنفسهم كانوا يشترون منه ويبيعون له، فما الذي جرى؟».

ـ كان الرجل ذا ثقة. هل تتخيل أنه كان يدفع بالشيكات؟!

ـ أظن أن السيارة صدمته قضاءً وقدراً، وهرب صاحبها خوفاً.

ـ ومن أدراك أنهم لم يتخلصوا منه بهذه اللباقة؟!

لبنانيون في المنسى

التابوت جاثم في مكانه التقليدي في الكنيسة، رأس المتوفي باتجاه المذبح، وقدماه صوب الباب، بينما الكهنة يتلون صلواتهم.

أهل الفقيد موجودون في الصفين الأول والثاني لجهة اليمين، والمشيعون موزعون في أرجاء الكنيسة، وقد اختار بعضهم كراسيها الخلفية ظناً ـ في لا شعورهم ـ أن ذلك يبعد المكروه عنهم وعن بيوتهم.

في الصف الأول، وعن يسار الفقيد، جلس رجل وامرأة وحدهما. ويبدو أن الرجل اختار ذلك المكان القريب، لأن عينيه لم تبعدا لحظة عن التابوت. وكان واضحاً أنه لا يسمع شيئاً مما يتلوه الكهنة، فالمرأة كانت تلمس كتفه فيقف، وتربت على يده فيقعد.

صور من الذاكرة كانت تتدافع في دماغ الرجل الجالس والواقف كالتمثال، تسابق في تدافعها صلوات

الكهنة، وانتشار البخور حول الرجل المسجى في ملكوته.

ومع دمعة تكورت في زاوية عين التمثال الواقف، ردد للمرة الثانية، بحيث كانت الأولى عندما رأى الفقيد على فراشه، في بيته، لآخر مرة:

ـ هذه هي النهاية إذن يا روجيه!

ست وخمسون سنة هي عمر صداقة الرجلين. أسرار ومواقف جعلت الدم ينساب فيها، ويجدد دائماً ما شاخ منها، أو ما شابها من سوء التفاهم. من عهد الطفولة والحلم في المدرسة، حتى الفاصل العجيب الرابض بين الحياة والموت.

في لحظة من لحظات الصفاء التي تلي آلام مخاض المعاناة البشرية ـ عند بعض البشر ـ باح روجيه لـ غابي مجدلاني أنه طالما كره ضعف أبيه تجاه أمه والحياة والناس.

ـ ولماذا كان ضعيفاً أمامها؟

ـ كانت جميلة وأصغر منه بكثير.

ـ وجعله فقره ضعيفاً أمام الباقي!

ورغم كرهه لذلك الضعف، وتحوّل روجيه نفسه إلى حوت في بحر الحياة، إلا أن مَنْ حوله كانوا يتعجبون من إلغاء اسم عائلته «سمعان» من بطاقات عمله، وحتى توقيعه، وعند تقديم نفسه إلى أناس يتعرف عليهم للمرة الأولى.

كان يكتفي باسم: روجيه داوود. وهذا أمر نادر الحدوث جداً في لبنان. ويبدو أن أولاده نفذوا ما يشبه وصية منه، لأن ذلك الاسم حُفِرَ على قطعة النحاس التي تُلصق عادة على التابوت لجهة القدمين.

كان روجيه وغابي صديقين منذ أيام الدراسة الأولى، حتى الدراسة الجامعية التي لم يستمر فيها أحدهما بجدية حتى نهايتها. وقد جمعهما ولع كبير بالسيارات، لدرجة أن روجيه تخصص في بيعها، وفتح صديقه كاراجاً لتصليحها.

وبحكم عمل روجيه في غربي بيروت، أصبح له احتكاك مباشر بالعناصر الفلسطينية، التي كانت تهوى السيارات الألمانية، منذ أواخر الستينات. ثم إن الرجل كان يتميز بخفة دم ساحرة، كانت تجذب الناس إليه، وتجعله قادراً على بيع أشد السيارات سوءاً

بثمن معقول. ويبدو أن هذه الصفة كانت وراء بعض أشد المعلومات أهمية لديه.

ذات يوم في صيف ١٩٧٤ همس لصديقه:

ـ قال لي أحد «الأبوات» أن هذا البلد سيحترق يا غابي.

ـ وإذا احترق أين سيذهبون؟!

ـ ما من شيء همسوه لي إلاّ حدث!

ـ الأجواء بشكل عام ليست نظيفة، لكنني أستبعد عملية الحريق.

وفي أواخر نيسان ١٩٧٥ التقى الرجلان في زيارة عائلية، وكانت الأحداث قد بدأت بين الكتائب والفلسطينيين، واكتفى كلاهما بهز الرأس بطريقة معينة، عندما بدأت زوجة غابي تثرثر مع صديقتها حول الأحداث التي حصلت قرب منزلهم في منطقة عين الرمانة وما تلاها.

ـ هل ما زلت تذهب إلى عملك؟

ـ أصحابنا يقولون إنَّ الأجواء ما تزال تسمح بذلك.

ـ وفي المستقبل؟

ـ إنني أفكر فيه منذ الآن.

لم يتوقف روجيه داوود يوماً عن الذهاب إلى مقر عمله غربي العاصمة إلا بعد يوم «السبت الأسود». فقد تصادف أنه كان في سيارته فوق «جسر الرينغ»، الذي يربط بين شطري بيروت، وذهنه خالٍ من أي سوء. وفجأة وجد أمامه صفاً طويلاً نسبياً من السيارات، يقف أمام حاجز لمسلحين ملثمين، ولم يتراجع، ففي التراجع يكمن خطر رشق ناري من أحد أسلحة الملثمين.

ـ هل هذه أوراقك؟

ـ نعم.

ـ وهل يوجد رجل اسمه روحيّة؟!

ـ روجيه، روجيه داوود.

ـ مسيو روجيه Passez!

لم يدرِ روجيه ماذا حدث له تماماً بعد هذه اللحظات، التي وقف فيها لا حول له ولا قوة أمام الموت العبثي. وكان يؤكد لمن يخبره ما حدث أن

الملثم كان مراهقاً لا يتعدى السابعة عشرة.

ـ وما أدراك؟

ـ صوته وجسمه وتردده عند قراءة اسمي.

ـ وما السر في اختيار مراهقين لمثل هذه المهام.

ـ لا يقدر على الجنون غيرهم.

ومن اللافت للنظر أنه بعد هذا الحادث، لم يعد يداوم في عمله. كذلك لم يعد يفكر في البحث عن عمل آخر في شرقي العاصمة. كان أقرب تشبيه لما حدث له هو ما كان يفعله الرجل البدائي الذي كان يقف كالتمثال اذا شعر بخطر قريب منه في الغابة. لكن المشكلة بدأت عندما تحولت الوقفة إلى جمود.

ـ كيف تتدبر أمورك المعيشية يا صديقي؟

ـ معي نقود كثيرة جداً.

استمرت حالته على هذا المنوال حتى نهاية «حرب السنتين»، وانتهاء الوجود الفلسطيني في ضواحي شرقي بيروت، وظهور ما سُمي وقتها بخطوط التماس.

كان يستيقظ في السادسة صباحاً، ويحلق ذقنه

ويرتدي ثيابه ويتعطر ويجلس في صالون المنزل يقرأ في دفاتره القديمة. وعند الخامسة بعد الظهر يتناول غداءه ثم يغيّر ثيابه كأنه عاد إلى المنزل.

ـ وماذا بعد؟

ـ كرهت الخروج ورؤية الناس في الخارج.

ـ قلبي يتمزق وأنا أراك كسيحاً هكذا.

ـ أفكر جدياً بالذهاب إلى مصر.

ـ ولماذا مصر؟

ـ حتى أكون قريباً. ثم انهم يتكلمون العربية مثلنا، وهذا لن يسبب أي خضة في تعليم الأولاد.

ـ أتنوي العودة؟

ـ لن أهاجر. أنوي فقط البعد عن هنا.

توالت المراسلات بين الصديقين، بقدر ما كانت تسمح ظروف البريد المتحرك بين لبنان والعالم في ذلك الوقت. وسأله غابي يوماً في التلفون عما اذا كان يمكنه الذهاب إلى مصر، لأن الأحوال تزداد سوءاً في لبنان.

في الاسكندرية شارك غابي أحد المواطنين، وفتح كاراجاً لتصليح السيارات، وبدأ يتلمس طريقه، وكذلك بدأت أسرته الصغيرة تنسجم مع الأجواء، والفضل كما كانوا يقولون، دائماً، للمسلسلات التلفزيونية المصرية التي جعلتهم يألفون مصر حتى قبل الذهاب اليها.

ـ يبدو أن برنامج حياتك قد تغير هنا.

ـ اذهب لاصطياد السمك صباحاً.

ـ كيف تتدبر أمورك الحياتية يا رجل؟

ـ أعيش من فوائد أموالي.

ـ والوقت الطويل الذي تهدره؟

ـ لا أخفي عليك أنني أعمل سائق تاكسي ليلاً.

ـ سائق تاكسي؟!

ـ السيارة لي وأعمل على زبائن الليل.

ـ وهن أجمل من راكبات النهار.

ـ صدقني لا أقدر على مواجهة الحياة خارج منزلي.

ـ ماذا حدث لبلدنا يا رجل؟

ـ وصلت إلى قناعة مفادها أنهم أجرّوه لاجراء عمليات عسكرية لا يعلم ما وراءها الاّ الله.

ـ أجّروه؟!

ـ والكارثة اذا كان عقد الايجار لمدة ٩٩ سنة.

ـ ماذا تقول؟

ـ العبث الدائر لا يفسره سوى ما أهذي به.

ـ حرب «داحس والغبراء» كما قرأنا في الكتب؟

ـ قد يستمر الايجار حتى اذا حلّ السلام.

وتشاء الصدف، أن يصبح روجيه داوود سعيداً على غير عادته، ضاحكاً لأول مرة منذ فترة طويلة. فغادر منزله صباحاً قاصداً البحر كعادته، إلا أنه عاد بعد دقائق ممّا أثار دهشة زوجته.

ـ اليوم أنا سعيد لدرجة أنني لا أستطيع أن أغادر البيت.

ـ ما الذي حدث؟

ـ سعيد لدرجة أنني أشعر كأن روحي في جهة وجسمي في جهة أخرى.

ـ دخل غرفته وغيّر ثيابه وارتدى بذلته وجلس في الصالون يشاهد التلفزيون.

ـ هل تعرفي أن برامج التلفزيون في مصر مسلية صباحاً.

ـ جداً. وفيها برامج لتعليم المرأة.

ـ والرجل أيضاً يستفيد.

ـ (ضاحكة) يستفيد من ماذا يا رجل؟!

ـ...

ـ أتستحي أن تقول؟

ـ...

ـ أما زلت في المنزل؟

ـ...

ـ قل ولا تستحِ.

ـ...

جاءت فريدة من المطبخ إلى الصالون، لترى لماذا لا يرد روجيه عليها، فوجدته قد مال إلى جانبه الأيسر، ورأسه مدلّى على كتفه.

«ماوس» البطل

ذكريات الانسان غالية. وأسباب عودته اليها كثيرة. فقد يعود اليها عن عمد، أو تقوده المصادفة لاسترجاع أمر ما من حقائب النسيان.

كان يحلو «لنبيل خاطر»، أحياناً، العودة إلى سنوات طفولته الأولى، ليصل إلى أبعد ذكرى أو صورة، يمكنه الوصول اليها؛ ولم يكن يجد سوى «نبيل الصغير» في الصف الثاني الابتدائي ومعلمة اللغة الفرنسية تسأل: Qui n'a pas fait son devoir?. وكان يتساءل في ما بينه وبين نفسه.

ـ أيعقل أن تكون حياتي منذ الميلاد، وحتى سؤال المعلمة، كحياتي في رحم أمي.. لا صور فيها أو ذكريات؟!

واذا كان في مخيلة أي انسان بطل ما، فان بطل نبيل خاطر شخصية عجيبة قياساً إلى أي انسان. بطله

الفأر الشهير «ماوس». ولعل سبب اختياره لذلك «البطل» منذ طفولته، حتى عمره الذي يلامس الأربعين، يعود إلى ابتسام «ماوس» أمام أشد المحن هولاً، اضافة إلى كونه داهية لا يصيبه أي ضرر؛ لم يشخ ولم يمت حتى اذا دهسته سيارة.

وطالما سخر منه ولداه، وهو يشاهد أفلام «ميكي ماوس» معهما، وكان يقول لهما: ستعرفان قيمته بعد ثلاثين سنة!

كان في آخر عام دراسي جامعي، عندما اضطررته ظروف الحرب في لبنان إلى تأجيل اتمام تلك السنة لمدة عامين. صحيح أنه اهتز قليلاً، وبدا متعثراً كمندوب مبيعات في شركة مواد غذائية، إلا أنه سرعان ما استقر نفسياً، وبدأ يثبت جدارته في ذلك المجال الذي لم يكن يمت بصلةٍ لتخصصه، ولم يحلم به مطلقاً.

وعلى رغم الأحداث الأمنية المتقطعة أو المستمرة، التي كانت تحدث في منطقة المرفأ، حيث تقع مؤسسته، لم يحدث أن تغيب عن عمله، ما أهلّه، بعد فترة قصيرة نسبياً، لمنصب مدير المبيعات.

ولمّا انتقلت المؤسسة إلى منطقة الدورة، بعد احتلال الأشباح والقناصة للمناطق المحيطة بالمرفأ، كان نبيل هو مديرها العام، بعد ذهاب صاحبها إلى قبرص ليباشر عمله في فرع افتتحه ليكون شريان تغذية للعمل المهتز في لبنان.

لم يُشاهد نبيل خاطر مهزوزاً، سوى بعد الانفجار الذي حدث في المناطق الشرقية ما بين القوات اللبنانية والوحدات العسكرية التي كانت تأتمر بالعماد ميشال عون.

أحس أن الضربة قصمت ظهره، ولم يحدث أن غاب عن تفكيره المنطقي، سوى بعد انفجار ذلك البركان في المناطق المسيحية.

ـ كارثة. كنا بحاجة إلى عمليات تجميل متواصلة، وصرنا بحاجة إلى عملية قلب مفتوح دائمة.

لكن الهول لم يمنعه من اقتراح نقل ما تبقى من المؤسسة من الدورة التي أصبحت خط تماس بين المتقاتلين، إلى منطقة المتن. واستجاب صاحب المؤسسة لاقتراحه، خصوصاً بعدما أفرغ البركان حممه اللاهبة، لتفصل ما بين المناطق المسيحية،

وتُفرَّغ مناطق بكاملها من سكانها.

وذات يوم، بينما كان في سيارته ذاهباً إلى مقر عمله الجديد، دار حوار داخلي مفاجىء، وجد نفسه فيه هو السائل والمجيب.

ـ معقول؟

ـ نعم معقول. ما هو اللامعقول الذي لم يحدث حتى الآن؟

ـ أكاد لا أصدق أحياناً أن ما أراه حقيقة ماثلة.

ـ أتظن أنك لو لم تكن تشبه «ماوس»، كنت استطعت الاستمرار؟

ـ فأر؟! قه.. قه.. قه. بطلي فأر!

ـ ليس فأرا بالمعنى المفهوم، لكنه أسلوب ضد الأقوى.

ـ لذلك أحبته الأجيال، وشجعت انتصاراته.

ـ حتى لو لم ينتصر، هو جدير بحياته وشبابه المتجدد.

وفي مكتبه دخلت السكرتيرة حاملة أوراقها

الصباحية، وبادرها بسؤال، وهو ما يزال تحت تأثير حواره الداخلي:

ـ هل أنت سعيدة في حياتك؟

ـ كثّر خير الله.

ـ ومما يحدث؟

ـ (متنهدة) ما زلنا نعيش.

اجابات بيروت البعيدة

لم تكن تقدِّر أبداً عندما زارهم مع أسرته لأول مرة، أنه سيكون زوجها. وكل ما كانت تعرفه عنه وعن أسرته، لم يكن أكثر من أحاديث أبيها عن ابن عمه طانيوس الذي ترك الجرد، واستقر في بيروت منذ أمد بعيد، وأصبح له أسرة هناك، مكونة من ثلاث بنات وصبي وزوجته. حتى «عمها» طانيوس كانت تراه في المناسبات، كالأعراس والدفن. كما أنها لا تذكر أن أباها قد ذكر أن بينه وبين طانيوس أية خلافات.

كانت أخبار طانيوس وأسرته تصلهم، ومن تلك الأخبار عرفت أن بنات «عمها» متعلمات، وأن ابن «عمها» فريد طبيب، وقد سافر إلى فرنسا لمدة سنتين، ثم عاد واستقر في بيروت. أما «عمها» فهو تاجر ويعمل في الأعمال الحرة وأن أحواله «منيحة كتير».

لذلك كان اللقاء بين الأسرتين في أول زيارة عائلية، فيه الكثير من دهشة التعارف بين أقارب لم يروا بعضهم سوى مرات معدودات. ومن الملاحظات التي انطبعت في ذهنها عن فريد، كانت ملامحه الجردية الحادة، بعكس أخواته البنات اللاتي تدل ملامحهن على أنوثة ورقة بنات المدينة، الناعمات المرهفات.

وكان الوداع بين الأسرتين بعد نهاية الزيارة، يشبه وداع سفر، لاحساس الجميع بأن الزيارة المقبلة ستكون بعد شهور، أو سنوات، نظراً للتباعد الكبير بين أماكن السكن، ولعدم تواصل العلاقات العائلية من زمان.

وكم كانت دهشة نهى ـ وهذا هو اسمها ـ كبيرة حين عاود «عمها» طانيوس الزيارة بعد أسبوعين فقط، وبصحبته ابنه فريد. ثم زادت مساحة دهشتها عندما بدأ فريد يزورهم زيارات متقاربة. وكاد قلبها أن يتوقف فرحاً عندما نبهتها أمها إلى أن الشاب يحاول أن «يلفي عليهم»، وأنها ـ نهى ـ المقصودة من بين أخواتها من تلك الزيارات!

ـ معقول يا أمي؟ هو دكتور وأنا لم أكمل دراستي!!

ـ وقع عَا راسه طب يا بنتي!

كانت ملاحظة الأم دقيقة وثاقبة، لأن فريداً بدأ يحاول حديثاً يكسب فيه ود نهى. ثم طلب منها ذات زيارة أن تلقاه بعيداً عن المنزل. وكان أن تلاقيا نهار أحد في كنيسة الضيعة. وبعد حضور القداس، تسللا بعيداً عن الناس، وانطلقا في سيارته بعيداً عن الضيعة.

وهناك أبدى اعجابه بها وبأخلاقها، واعترف بأنه يرتاح اليها. وبدا لها بوضوح أنه يريد مدّ جسور بينه وبينها، عندما قال إنه يزورهم قاصداً رؤيتها هي. أما نهى فقد أفهمته أنها تقدِّر فيه تلك الصراحة، لكنها لا تستطيع أن تلقاه بهذه الطريقة دائماً، نظراً إلى وضعها وبيئتها.

جرت الأمور بسرعة كبيرة نسبياً بينهما بعد ذلك اللقاء، اذ تقدم فريد لخطبتها، بينما هي غارقة في شعورين؛ احساس بفرحة غامرة تخدرها، واحساس بالدهشة والغرابة، جعلاها غير مصدقة لما يحصل.

وأثناء فترة خطوبتهما، أُتيح لهما أن يتعرفا على بعضهما أكثر، وبدأت الصورة التي كانت مهتزة بسبب السرعة وفرحتها تتوضح أكثر.

كان فريد يعرف أن نهى لم تكمل تعليمها، ثم فوجىء أنها تعرف، تقريباً، مثل المتعلمين. واكتشف أنها كانت تقرأ كتب أخواتها وتتعلم بعدما فشلت في التعامل مع المدرسين وليس العلم. وبجانب ذلك كانت تستمد من حياتها في الضيعة، ومن التلفزيون خبرات الحياة.

وكان أكثر ما يهمه فيها هو جمالها الهادىء البعيد عن لمسات الماكياج، وتعاملها معه بلياقة، وحدس نقي، وذكاء لمّاح كان يبرز خصوصاً في انتقاء أسئلتها من روحية كلامه. وبالرغم من أن خطوبتهما كانت مثار دهشة لكل من يعرفهما، إلا أن القاسم المشترك بينهما كان سبب حدوثها ونجاحها.

كانا رومانسيين في طباعهما. وقد صورت له رومانسيته ارتباطهما كالتقاء المدينة بهدوء الجرد وصفائه، وامتزاج رائحة الزيتون والسعتر بأجواء البيت المديني.

أما هي فقد جسّدت أول أيام خطوبتهما حلماً جميلاً تحقق. وهل من حلم أجمل من زواج فتاة جردية من جرّاح تجميل تعلّم في لبنان وتخصص في فرنسا؟

ثم بدأت الأيام تنزل تلك الفرحة السماوية، من ملكوتها إلى أرض الواقع. وكانت بداية ذلك عندما لاحظت هي أن خطيبها في أعماقه غير سعيد، رغم نجاحه المهني والميدان الرفيع الذي يعمل فيه، وبحبوحة العيش البادية على حياته وحياة أهله.

لم تدرك في البداية ـ نظراً لمحدودية بيئتها ـ الأسباب التي تكمن خلف حزنه ـ حتى وهو يضحك ـ الذي لمحته من أول لقاء، ولم تعطه نصيبه من التقصي والملاحظة. وفيما بعد، ومن خلال أحاديثه واجاباته عن أسئلتها اكتشفت أن وراء ذلك اللقب اللامع «جرّاح تجميل» تكمن مشاكل ومعاناة هائلة.

تعلم فريد في احدى كليات الطب اللبنانية، وتخصص في فرنسا. لكن تخصصه ذلك غير معترف به في لبنان، في حال عادت الدولة الغائبة. وتفسير ذلك أن فرنسا أصبحت لا تستقبل أطباء لبنانيين إلا في

أضيق نطاق، ومن ثم يتجه الباقون إلى دبلوم يسمى DIS، وهو تخصص لا يمكن العمل به في فرنسا، ولا يستطيع الجرّاح الأجنبي العمل بموجبه هناك. وفي لبنان هناك مشكلة «الكبار» في مجال الطب، و«الصغار» الذين يدورون في فلكهم، ويعانون من صعوبات بالغة لأخذ مكان تحت الشمس.

ومن الطرائف التي رواها لها، أن امرأة مصابة جاءت إلى المستشفى، وتعذر احضار الطبيب «الكبير» الذي يعمل معه بسبب تدهور الحالة الأمنية يومها، فأجرى هو بمفرده تلك العملية الكبيرة، ومن يومها ذاع اسمه وعُرفت مقدرته في المستشفى وعند الناس. وبدأ رحلة الاتجاه إلى مكانة طالما سعى اليها، وكاد يشك في الوصول لها.

وكان طبيعياً بالنسبة لأنثى أن تسأل خطيبها اذا صادف الحب في فرنسا. وعرفت منه أنه أحب فتاة فرنسية، أراد من صميم قلبه أن يتزوجها، لأنها كانت بالنسبة له نموذجاً حضارياً، عاش في مخيلته منذ أن كان تلميذاً في المرحلة الثانوية. ثم فشلت قصة الحب تلك فشلاً ذريعاً.

ـ كانت هي تعيش حياتها، بينما كنت أنا أتأمل الحياة!

ـ هل كنت تريد الحصول على الجنسية الفرنسية؟

ـ ربما! لكن هدفي الأول كان الزواج منها لدرجة...

ـ لدرجة ماذا؟

ـ لدرج أنني طلبت ذات مرة في الكنيسة من الله أن يساعدني على الزواج منها!

ـ ولم يستجب الله؟!

ـ في البداية فكرت تفكيرك نفسه.

ـ وبعد ذلك؟

ـ عرفت أن الله لا شأن له بما حصل!

ـ لماذا؟!

ـ قلت لك انها كانت تعيش حياتها، وكنت أنا أتأمل الحياة!

ولم تقدِّر نهى أن وراء تلك العبارة المقتضبة، تكمن متاعب فريد ومشاكله بصورة عامة.

مرت شهور الخطوبة سريعة لذيذة، فقد كان فريد جوزائي البرج، قادراً على ابتكار الجملة الجميلة الرشيقة، التي تأتي على لسانه بدون تعب أو تكلف. وكان ذا طبعين بحكم خصائص برجه؛ طبعه الحزين السائد، وطبعه المرح الذي يستطيع ايجاده وقت ما يشاء، وكأنه كان يهرب من الطبع الآخر. ولذلك عاشت هي مع انسان واحد، صاحب شخصيات مختلفة، ما أثار فيها عاطفة الحب والفضول، وأتاح لها قلبها أن تمرح وأن تكتشف، وقد زاد في لذة الخطوبة، تباعد فترات اللقاء نسبياً، نظراً لطبيعة عمله، وبعد مسكنه عنها. فكانت هناك فترة بين اللقاء واللقاء، تسمح للخيال أن يعمل، وللقلب أن يتلهف ويشتاق.

ويوما أحبت نهى أن تذهب معه إلى المستشفى، لترى المكان الذي يعمل فيه، وكأي انسان يحب أن يرضي غروره، أخذها معه في يوم كان سيجري فيه عملية مهمة وحده.

وما أن انتهت العملية حتى سارع أهل المريض بسؤاله، وجاء رده مطمئناً بأن العملية قد نجحت. ولاحظت هي أنه كان في منتهى الانشراح والسعادة،

وهي حالة لم تشاهده فيها من قبل! ولما خرجا من باب المستشفى، عادت اليه فجأة شخصيته الحزينة!

ـ لماذا تغيرت؟!

ـ كل هذا التقدم في غرفة العملِيات، وكل هذا التخلف خارجها، وتسألين لماذا تغيرت؟!!

ومع اقتراب موعد الزواج، أحست نهى أنها بدأت تشعر القرب منه كثيراً، لكنها مع ذلك لم تستطع أن تفهمه تماماً. وساعدها ذلك الشعور بالقرب، أن تجرؤ وتدخل غرفته في بيت أبيه وحدها معه. وراعها كمية الكتب الكبيرة المختلفة في الغرفة، وبعض المنحوتات الموجودة فيها.

ـ هل تحب التماثيل؟

ـ نسيت أن أقول لك إنني أنحت أحياناً!

ـ أظن أن ذلك التمثال الذي يشبه النسر سيقع.

ـ لماذا؟

ـ لأن ضخامة النسر لا تتناسب مع العامود الذي يثبته بالقاعدة.

ـ معك حق.

ـ وهل ستنقل كل هذه الكتب والتماثيل إلى شقتنا؟

ـ انني لا أستطيع أن أحيا، وصليبي ليس معي!!

تزوج فريد ونهى وعاشا أيام زواجهما الأولى، كأي عروسين، يعبّان من ينبوع اللذة والسعادة، وتحيط بهما التمنيات الوردية من الناس أينما ذهبا معزوميّن، أو في بيتهما متقبلين التهاني. وأثناء زيارة ابنة خالتها وزوجها لهما مهنئين، انفردت ابنة خالتها بها في المطبخ وسألتها:

ـ ان شالله صار متل ما قلت لكِ!

ـ حتى اليوم ماشي الحال!

ويعود ذلك التساؤل والاجابة عليه إلى ما قبل الزواج، عندما استشارت نهى ابنة خالتها ـ المعلمة ـ عن حالة فريد الفكرية التي لا تفهمها.

ـ اطمئني. معظمهم كذلك قبل الزواج، حتى أن بعضهم يكتب شعراً.

ـ وبعد الزواج؟

ـ يغرقون في تفاصيل الحياة ومشاكلها، وينسون

عالم الفكر العلوي!!

لكن الشهور التالية أثبتت أن الرجل يعاني من حالة أصيلة في وجدانه، ولم تُحل بعد. وكان قرار نهى أن تقترب من عقله، وتحاول فهم ما يعانيه، حتى لا تصبح انساناً غريباً عنه، ومن ثم تزيد الهوة بينهما وتشمل مساحة معيشية، بجانب المساحة الثقافية.

ـ هل تعرف أنني اندهشت كثيراً عندما رأيت البحر لأول مرة؟

ـ وأنا لم أصدق أن فيَّ هيكلاً عظمياً عندما درسنا البيولوجيا لأول مرة!

ـ كيف كنت تقضي أوقات فراغك وأنت صغير؟

ـ كنت أقرأ، حتى عندما كنت أذهب إلى المستودع عند أبي.

ومن أحاديثه عن حياته، عرفت أنه كان قارئاً نهماً منذ صغره. ولم تكن لديه أي أوقات طويلة يقضيها مع أصدقاء له، أو في ممارسة رياضية. وعندما التحق بكلية الطب، لم تقتصر قراءاته على جغرافية الجسم الانساني وتشريحه، بل تعدتها إلى قراءة العلوم

الانسانية والنظريات العلمية الحديثة، خصوصاً التي تتعلق بالكون.

وكان أغرب شيء عرفته، أنه يعمل بالتجارة أحياناً بجانب عمله! وكان تفسيره مقنعاً بالنسبة لها:

ـ لا تنسي أنني نشأت في بيت تاجر. ثم ان التجارة مسلية ومربحة.

استمرت حياتهما زوجين سعيدين. ودخل حياتهما المشتركة أصدقاء زوجها وزوجاتهم. وكانت تلاحظ أن بعض أصدقاء زوجها يتحدثون معه في شيء يشبه السياسة، ولم تسعفها ثقافتها لكي تعرف أن الحديث هو حديث فكر سياسي وليس سياسة.

وفي المكتبة الضخمة التي كانت في غرفة مكتبه، لاحظت أن الكتب الاشتراكية هي السمة الغالبة على عناوين كتب كثيرة. وقد أغراها الفضول أن تطالع بعضها، بعد أن تتصفحها بسرعة، ثم تشعر أنها تستطيع أن تقرأها. ولعل ذلك الفضول كان دافعه ارادتها ورغبتها في أن تكون على قدر من الفهم، يجعلها تفهم حديث زوجها وأصدقائه.

ومن المؤكد أن زوجها كان يلاحظ نضالها، وكان

ذلك يزيده حباً فيها، واعجاباً بها. ومن المؤكد أيضاً أنها كانت تبحث عن اجابات، لأسئلة لم تتحدد بعد في ذهنها. ومهما كانت «شطارة» الانسان، لن يقدر من خلال المعطيات التي أمامه أن يجد اجابات. فالمعطيات تعطي دوائر ومعادلات واحتمالات. أما هي فبحاجة إلى اجابات. والاجابات موجودة في حياة زوجها نفسه، وخبراته ومعاناته وطفولته.

نشأ فريد في أسرة تعيش حياة رغدة. وكان أبوه ـ كما عرفنا ـ يعمل بالتجارة. وقد تعلم فريد في أرفع مدارس بيروت الخاصة. وكان بحكم تكوينه العقلي المتميز من المتفوقين في الدراسة. وقد ساعدته ظروفه الأسرية والعقلية على الانطلاق من مجال الدرس إلى مجال التفكير. فهو وحيد بين ثلاث بنات، ووالده جردي نزح إلى بيروت وكان أول عمل له في الميناء. وفي المرفأ تفتحت آفاقه، وانتقل من طبقة العمال إلى الطبقة البرجوازية الصغير، بحكم عمله الجديد.

وقد سيطرت على الوالد ـ بحكم ظروفه ـ قيم جديدة، خلقت تناقضات بشعة بين علاقاته الاجتماعية بالناس، وبين ما يحرص عليه من تقاليد ورثها عن الجرد.

ومن ثم كان طانيوس متى نموذجاً مثالياً للمجتمع البرجوازي الصغير، الذي يعاني الذبذبة في اتجاه بوصلته، ويكابد التوتر بسبب ظروف الاحتكار الاقتصادي في لبنان، التي تجعل الصغير يخشى من ابتلاع الكبير له دائماً.

لذلك كان حرص طانيوس المفرط على تعليم أولاده، ولما أصبح فريد شاباً، استطاع أن يستوعب كل الصور العائلية التي مرت في حياته، ووعى تماماً مكان والده على خريطة المجتمع البيروتي، وفهم حرص طانيوس على تعليمه، وحثه الدائم على أن يكون مهندساً أو طبيباً.

وقد اتخذ فريد من العلم سلماً، يتسامى به على طبقته المنتمي اليها، بحكم وجوده داخل تلك الأسرة. كما زرعت فيه الثقافة بذرة كانت تنمو كلما تقدم في العمر، وتخطى مرحلة إلى أخرى في التعليم. وعندما وصل إلى نهاية المرحلة الثانوية، تذبذب ذلك البرجوازي المتسامي بين الفنان المثقف فيه ـ كونه صاحب موهبة نحت ـ وبين الطموح. لكن الطموح، وحث والده المستمر تغلّبا، فالتحق بكلية الطب. ثم تخصص في التجميل بعد ذلك، لأنه لم

يستطع الهروب من روح الفنان الحالّة فيه.

وفي كلية الطب كانت إحدى عينيه تتطلع باستمرار نحو فرنسا؛ حلم شبابه المبكر، وقبلة جراحة التجميل كما عرف في الكلية. وشجعه أبوه ووعده بتحقيق حلمه في الذهاب إلى فرنسا، ذلك الحلم الرومانسي.

واذا فحصنا قلب فريد قبل سفره، لعرفنا أن نية غامضة كانت تسيطر عليه. وهي أن يكمل تخصصه في فرنسا، ثم ينطلق إلى بلد أوروبي آخر ويستقر.

سافر فريد إلى فرنسا متغاضياً عن مشكلة التخصص التي رواها لنهى أثناء خطوبتهما. وهناك وعى لأول مرة، وأمام عينيه وجود شعب، وتاريخ ملموس متجسد.

ـ هذه القصور والقلاع العتيقة بناها فرنسيون، وهؤلاء الناس هم الشعب!!

ثم أدهشه بعد ذلك عدم احساسه بأنه يعيش في مكان، كان يعتبره امتداداً للبنان، لدرجة أنه كاد أن يقول لبعض زملائه إنه يعرف جغرافية فرنسا أكثر منهم!!

ورغم أنه سافر ليكمل تخصصه في جراحة التجميل، إلا أنه انخرط في جماعات المثقفين هناك، وتفتحت عيونه على معانٍ في التراث الانساني، لم يستوعبها في بيروت. وبين جماعة المثقفين التقى فرانسواز التي أحبها، وبرر سبب فشله بما برره أمام نهى. ولعله كان محقاً في ما قاله.

كان نهاره في فرنسا نهار عمل كمساعد لطبيب هناك. وقد بذل جهداً كبيراً ليحصر وقته العملي والدراسة المرافقة له حتى المساء. أما الجزء الثاني من يومه فكان متنوعاً ما بين اللقاء مع أصدقاء مثقفين هناك، أو لقاء حبيبته، أو القراءة. وأحياناً كان يذهب للترفيه عن نفسه. كما كان يزور المتاحف كلما سنحت له فرصة لذلك.

ونتيجة لتلك الحياة المثمرة، وحياته في وطنه، بالاضافة إلى تأملاته وخبراته وقراءاته، استطاع الوصول إلى لحظة شفافة، أتاحت له رؤية خطوطه مع الله والمجتمع والوطن.

تلازم وجود الله في حياته مع بداية ادراكه للموجودات من حوله، وكان ذلك أثناء ذهابه للكنيسة

مع والدته وهو صغير. ثم ترسخ هذا الوجود عاطفياً أثناء تعليمه في المدارس الخاصة الكاثوليكية. وكان يحس أنه من خلال دينه ومذهبه هو فقط، يستطيع أن يعرف الله، وأن يؤمن به أجمل ايمان وأعذبه.

لكن القراءات التي قرأها، والتجارب التي مَّر بها ـ خصوصاً خلال أحداث العام ١٩٧٥ وما بعده ـ ثم مرحلة انعدام الوزن الديني التي عاشها في أول مراحل دراسته الطبية، جعلته يصل إلى «ايماني الجديد» كما يقول.

أما وطنه فقد انتهى إلى أن انتماءه له، يشبه انتماءه إلى جسده ولون عينيه. ومن جهة أخرى، كانت حركية هجرة فريد وعودته، حركة مثالية. هجرته كانت محاولة اجابة عن سؤال رومانسي. وعندما لم يجد تلك الاجابة عاد. وهو منذ عودته ينتظر اجابات بيروت عن أسئلته.

وهو أحياناً يسأل نفسه: هل صحيح أن التاريخ عندنا يبدأ منذ العام ١٩٧٥؟!

ورغم محاولة تساميه على طبقته، إلا أنه يضطر أحياناً لعقد صفقات تجارية لكي تعينه على حياته،

خصوصاً أن جرّاح التجميل لا يعمل يومياً مثل بقية الجراحين. بالاضافة إلى أن أجره ليس باهظاً.

هكذا كان فريد عندما قابل نهى ذات صباح أثناء زيارة عائلية، ووجدها تحرك نداءً مجهولاً في دواخله، سرعان ما استطاع حل رموزه ومعانيه. ولعل اختياره وتصميمه على الزواج منها، كان تأكيداً على قضية الانتماء التي حسَمها أثناء وجوده في فرنسا.

كما حاولت نهى، مخلصة، أن تجعله يرى نفسه فيها. فهي تناقشه وتسمع له وتشاركه ـ بقدر حدودها ـ جلساته مع الأصدقاء. وتقرأ الكتب وتستفسر منه.

وذات يوم كانت نهى تعيد ترتيب غرفة مكتب فريد، وبدون انتباه اصطدمت بتمثال النسر فاهتز ووقع وانكسر. وحاول فريد لصق أجزائه، فقالت له نهى:

ـ الترميم سيجعله بشعاً. اصنع واحداً جديداً.

ضحك فريد وقال لها بعد تأمله لشعرها الأسود ووجهها القمحي:

ـ الحقيقة دائماً تأتي على لسان البسطاء.

وكعادتهما كل صباح سبت، كانا يستعدان لقضاء

عطلة نهاية الأسبوع في ضيعة أبويهما، وبينما هما كذلك قالت له:

ـ أيها الطبيب! ألا تلاحظ شيئاً؟!

ـ ألاحظ أن صحتك جيدة وأنك سعيدة.

ـ فقط؟!

ـ فقط!!

ولما نزلا من شقتهما، وتوجها ال السيارة، ابتعدت عنه واتجهت إلى سور ڤيلا قريبة من البناية التي يسكنان فيها، وقطفت وردة حمراء، وعادت وقدمتها له:

ـ وما هي المناسبة؟

ـ انني حامل أيها الطبيب!!

ـ قلت لك إن الحقيقة على لسان البسطاء!

ـ ماذا تعني؟!

ـ أعني أنني لا أستحقها. احمليها أنتِ بالنيابة عن الجنين الذي في بطنك!

الرجل ذو النظارة السوداء

لم يعكر صفو ناطور البناية في ذلك الضحى، سوى خروج رجل لم يكن يعرفه من المدخل، بينما كان يتأهب للتحرك من غرفته المتاخمة لباب المصعد، من بعد افطار متأخر، نحو مكانه الذي اعتاد الجلوس فيه.

وما زاد قلقه هو أن الرجل كان يخرج واضعاً نظارة سوداء، اضافة إلى استعماله الدرج نزولاً وليس المصعد، رغم أن التيار الكهربائي لم ينقطع عن الحي في ذلك الصباح.

ركض الناطور نحو مدخل البناية ليتحقق من هوية الرجل، لكن الأمتار الستة التي كانت تفصل بينهما، بدت كفيلة لكي تبتلع الطريق الرجل ذا النظارة السوداء.

ـ الأمر مريب. قال الناطور.

ثم استدار وعاد إلى شقته، وبدأ يسأل، مستعملاً الانترفون، سكّان الطابقين الأول والثاني، عمّا اذا كان لديهم أي زائر، وكانت الاجابة بالنفي. ثم تذكر أمراً جعله يدق على رأسه كالمصعوق:

ـ القاضي منير طربيه في الطابق السابع.

ووضع يده على جرس الانترفون ولم يحركها، وطال انتظار الرد، فترك الانترفون واندفع إلى موقف سيارات البناية الخاص، ولم يجد سيارة القاضي. ورغم ذلك دفعه الشك الذي سيطر على قلبه للصعود إلى الطابق السابع ودق جرس الباب، ولم يجب أحد.

ـ سأصعد إلى السطح للتأكد من الخزانات.

وصعد الناطور إلى السطح للبحث حول خزانات المياه، ظناً منه أن الرجل ذا النظارة السوداء قد فخخ أحد الخزانات بمتفجرات. ثم فحص غرف مهملة فوق السطح أيضاً:

ـ لعله يتخذها مقراً لقنص الناس ليلاً.

لم يجد الناطور ما يثير أدنى ريبة في ما رأى،

لكن الوسواس الساكن في قلوب أهل بيروت في ذلك الزمان، جعله يدق على باب كل شقة أثناء نزوله على الدرج، ليستفسر عن شخص مواصفاته كذا وكذا. ومن الأمور الأغرب التي صادفته هي عدم تعرف السكان على شخص بهذه المواصفات قد زارهم في ذلك الصباح.

وفجأة قالت له احدى الساكنات:

ـ يا أبو داني. ماذا بك؟ لقد سألتني منذ نصف ساعة.

ـ آسف يا أم سعيد. هل وصلت إلى الطابق الثاني؟

ولم تلبث الخبرية أن انتشرت في الحي كله بعد ساعة، وأخذ صاحب محل الأحذية يعتب على أبي داني لأنه عمل من الحبة قبة.

ـ ماذا تقول يا أبا جوزيف، هل نسيت القنّاص الذي ربض فوق سطح بناية مشاطي، وجعل يصطاد الناس ليلاً مثل العصافير.

ـ معك حق والله، واعتقدنا أن القنص من

المناطق الأخرى، قبل أن نعرف أن الرجل «منّا وفينا».

ـ لذلك أنا غير مرتاح.

ـ لعلك كنت مرهقاً، والنظارة السوداء جديدة وهي لأحد السكان، وأنت لم تَرَ ذلك بوضوح.

ـ غير معقول. وكل السكان مرهقون مثلي.

ـ لعله عشيق جديد لاحدى ساكنات البناية.

ـ ويخرج هكذا في وضح النهار؟

ـ الزعران كثيرون يا أبا داني.

ـ هل تظن أنه غريب أضاع قصده؟

ـ لا أظن.

ـ ولماذا؟

ـ لو كان غريباً لسألك عن عنوان أو اسم.

ـ يلعن هذا الصباح النحس.

أم جورج المخطوف

عندما غادرت رأس بعلبك وتوجهت إلى بيروت، كانت أرملة ومعها ابنها البالغ من العمر عشر سنوات. أرملة لم تجد الحنان أو الاهتمام من عائلتها، ولا الوفاء من عائلة زوجها بعدما توفي. لذلك كان قرارها أن تذهب إلى بيروت مع صغيرها، وكلها أمل أن تجد عملاً وتجعل ابنها يكمل تعليمه.

ومثل أي انسان بسيط في تفكيره، ولا يجد من ينتظره في العاصمة، اتجهت إلى المطرانية التي تنتمي اليها طائفياً، وطلبت مقابلة المطران. ولما قابلته شرحت له ظروفها وما تريده، وختمت بالقول:

ـ سيدنا. الناس فئتان في الدنيا: محظوظون ومكافحون، فساعدني لأنني من المكافحين.

وفعلا ساعدها المطران وجعلها تعمل في احدى كنائسه الصغيرة؛ ناطورة تنظف الكنيسة وتهتم بما

تحتاجه من أمور، وبنظافة ثياب راعي الكنيسة وأكله. واعتقدت «أم جورج» ـ هكذا كانوا ينادونها ـ أن الدنيا ابتسمت لها من بعد عبوس، وأن «بكرا» أصبح يحمل لها لأول مرة الرحمة والأمل.

بدأت أم جورج حياتها الجديدة في بيروت، وألحقت ابنها باحدى مدارس المطرانية القريبة من الكنيسة التي تعمل بها. ورغم أن البيئة والأجواء قد تغيرت حول أم جورج، إلا أن بيئتها السيكولوجية الداخلية ظلت كما هي لم تتغير.

فمن الأمور التي لم تتغير في سلوكها، كان تحضير المونة والخبز، رغم أن السوبرماركت يبعد عشرات الأمتار عنها فقط. كذلك نمط حياتها البخيل المقطر كونها أرملة أولاً وريفية ثانياً. اضافة إلى الشعور بالخوف والتوجس الذي ظل يلازمها، والذي نتج عن انعدام الحنان وعدم اهتمام أهلها، والجشع الذي جوبهت به من أهل زوجها بعد وفاته.

ولعب الشعور بالخوف والتوجس دوراً حاسماً في حياتها، وكان مفتاح سلوكها. فبعد القداس الصباحي اليومي، كانت تغلق البوابة الخارجية للكنيسة، ولا

تفتحها إلا للطارق بعد التأكد من شخصيته. كما كانت تغلق أي باب تفتحه في الداخل، ولا تتحرك سوى داخل ممرات مغلقة أو حجرات مقفلة.

وكان تعاملها مع الرجال، حتى راعي الكنيسة، لا يتعدى القاء التحية أو طلب شيء أو تأدية أمر محدد. ورغم محدودية تعاملها مع نساء الحي الذي تقع الكنيسة فيه، إلا أنها كانت تعرف كل أخبار وخبريات الحي تقريباً!!

كما انعكس شعورها ذلك على سلوكها مع ابنها، وأيضاً على سلوكه في الحياة. كانت تحاول أن ترضيه بأي ثمن ولا تزعجه أبداً. ومن ثم أهملت حتى التأديب الذي يحتاجه أي ولد صغير. وكان طبيعياً أن ينشأ جورج دلّوعاً. الأمر الذي أدى إلى فشله وعدم اتمام مراحل تعليمه.

وفشل أيضاً في تعلم أي حرفة، لأن أمه كانت تتأثر عندما ترى ارهاق يديه، أو آثار الشمس على بشرته، أو عندما تراه نائماً بعمق بسبب يوم عمل طويل. وكانت تتصرف تصرفاً يناسبها، هو أن تعطيه نقوداً وتدعوه إلى ترك مهنته المرهقة، والبحث عن

أخرى أقل تعباً. وأثر ذلك الحنان المفرط على سلوكه، فأصبح لا جلد له ولا صبر على أي مجهود في أي عمل، كما أصبح عصبياً معها، خنوعاً بين الناس.

ولما كان راعي الكنيسة ينظر بعين الشفقة إلى المرأة وابنها الفاشل في مواجهة الحياة علماً وعملاً، قرر أن يعتبره موظفاً مثلها عنده. موظف يؤدي أموراً بسيطة لا تحتاج إلى براعة، ويتقاضى معاشاً يجعله يحس أنه نافع في الحياة، ومن يدري كيف ستتطور شخصيته لاحقاً.

بدأ جورج مع مرور الأيام يحس بحاجته إلى انتماء يجعله أقوى في الحياة، ويجعل له قيمة بين أترابه والبنات اللاتي يحاول لفت أنظارهن اليه. ومن مجمل ما كان يسمع، قرر الانتماء إلى الميليشيا التي تهيمن على منطقته. ومن المؤكد أن انتماءه لم يكن بسبب حبه لمبادىء تلك الميليشيا، انما كان من أجل الانتماء إلى تلك البزة المميزة التي تجعله قوياً بين الناس.

ثم تبين له أنه لن يقدر على الوفاء لمتطلبات تلك

البزة من خطر قد يفضي به إلى الموت أو العجز. لذلك طلب من أمه أن تحادث راعي الكنيسة لكي ينهي له ارتباطه بتلك الميليشيا. وكان له ما أراده، وعاد إلى طبيعة عمله البسيطة، كأن يضع شيكاً في بنك، أو يشتري الجريدة لراعي الكنيسة، أو يذهب معه مساعداً في دفن أو عرس. وطالما كان يروي لأترابه مغامراته «الهائلة» في الميليشيا، التي لم يخبرهم مطلقاً بأنه تركها، ما جعله علامة استفهام بينهم.

وكان أحياناً يأخذ مفتاح البوابة الخارجية، ويذهب مع أصدقائه في مشوار ليلي، قد يكون إلى السينما، أو إلى بار. وكانت أحياناً تدفعه نوبة من نوباته العصبية مع أمه للذهاب إلى قريب لهم يسكن في جبيل، بدون أن يقول لها، ويعود بعد ظهر اليوم التالي ويجدها منهارة من غيابه المفاجىء.

وصودف ذات مرة أن ذهب جورج في مشوار ليلي من مشاويره، ولم يرجع. وانتبهت أمه إلى غيابه قبل طلوع الشمس، عندما لم تجده في فراشه الذي لم يُلمس.

وعندما أشرقت الشمس بدأت أم جورج تقلق فعلاً، وبعد القداس الصباحي أخبرت الخوري عن غيابه فقال لها أن تنتظر بعد الظهر، ونظر في عينيها: هل تشاجرتما أمس؟

وانتصف النهار، وبدأت المرأة البحث عند أصحابه الذين أجمعوا على عدم رؤيته لأنهم لم يتفقوا على موعد معه. وأمست الدنيا وأم جورج تقف عند البوابة الخارجية، وكانت كلما رأت سواداً مقبلاً في الشارع المعتم تهتف: جورج؟! ثم ألحت على الخوري أن يتصل بالمطران، ولما فعل نصحه الأخير بالبحث في المستشفيات فلعله يرقد مصاباً باحداها.

وأصبحت الدنيا والخوري والمرأة ينهيان جولة على كل مستشفيات شرق العاصمة بدون جدوى. ولم تمض بضعة أيام حتى سرت في الحي شائعة تقول إن جورج قد خُطف! فصدقتها الأم وذهبت إلى المطران ترجوه أن يبدأ اتصالاته. وحاول الرجل أن يبيّن لها استحالة الأمر لعدم وجود ما يبرره، لكن دموع الأم والحاحها الكبير أرغماه على القيام باتصالاته التي انتهت كلها بعدم معرفة أي شيء عن ذلك الاسم!

وبعد تلك المرحلة بدأ شعور لا اسم له يعصر قلب أم جورج بيد من حديد، ويحل محل التوتر في شبكة أعصابها. وبدت شاردة تنسى تفاصيل عملها الروتيني، كما بدأت تهمل نظافتها الشخصية، وسيطر عليها ذهول واضح في تفكيرها وسلوكها. وأخذ الأرق يلازمها ليلاً، وكانت اذا سمعت صوت سيارة تقف خارجاً، تركض بسرعة وتفتح البوابة، مهما كانت الساعة متأخرة ليلاً، على أمل أن يكون ابنها.

ولمّا تدهورت حالتها النفسانية، اضطر الخوري إلى الاتصال بأهلها، الذين أشاروا عليه أن يضعها في دير الصليب! وبعد أسابيع في مصحة الدير، أشار الأطباء على الخوري أن يضعها في مأوى للعجزة، لأن حالتها لا تستدعي الاقامة في ذلك المكان.

وفي الشهور التي قضتها في المأوى، كانت أحياناً تبدو بليغة في أقوالها مع الراهبات، لكن سرعان ما تعود إلى الذهول فيغشى تفكيرها وسلوكها. وكانت تتمتم أحياناً:

ـ كنا من المكافحين وأصبحنا من التعساء.

ثم عادت أم جورج واستقرت نفسانياً، إلا أن

أخدود حزن عميق كان يسم مزاجها، وعادت إلى عملها في خدمة الكنيسة، لكن حياتها تحولت إلى فراغ لا معنى له. تأكل أنواع الطعام فلا تحس تمايزاً بينها، وكأنها تأكل دائماً أرزاً بلا ملح ولا طعم. وكانت أحياناً تقوم منتبهة من نومها المتقطع وتقول:

ـ ليته مات! كنت على أقل تقدير عرفت مصيره.

وذات يوم رآها الخوري تقف أمام تمثال المسيح وتقول بصوت مبحوح:

ـ أنا زعلانة منك!

ـ يا أم جورج حرام. أحياناً يختبرنا الله ليغرف معدننا.

ـ يختبرني في الانسان الوحيد الذي أحبه؟!

هكذا عاشت أم جورج في هذه الحياة الكبيرة العجيبة التي تصيبنا أحياناً بما لا طاقة لنا به. وكان الأمر الوحيد الذي كانت تؤديه بحماس، هو الركض نحو البوابة الخارجية، كلما سمعت صوت سيارة تقف خارجاً، على أمل أن يكون ابنها قد عاد.

مغسلة

الحركة تكاد أن تكون معدومة على الطريق. الملل يترسم على وجوه المتسكعين على الرصيف الطويل، والانتظار مرسوم على وجوه أصحاب الفانات المستخدمة كافيتريات متنقلة، على كورنيش المنارة في بيروت، وهو يقود سيارته متثاقلاً، وفي نيته الذهاب إلى محطة البنزين ليملأ خزان وقوده.

انتبه إلى نشرة أسعار صرف العملات تجاه الليرة. الدولار يساوي ٢٣٦٠ ليرة كسعر وسطي. ضحك وتذكر أمراً ما.

ـ اشتريت شقتي في سنة ٧٥ بـ ٤٠ ألف ليرة، وهي لا تكفي اليوم الشراء حذاء.

أطفال يركضون وراء بعضهم على الرصيف ويصطدمون ببصارة. لقد عرفها من زيها والمنديل

الذي تضعه على رأسها. والبصارة تساعد الطفل الذي وقع على الأرض عندما اصطدم بها، وفي عينيها نظرة اشفاق.

اقتحمت عيناه صورة شخص على عمود كهرباء، قد وضعوا العلم اللبناني على يسار أعلى زاوية صوره. وظنه لأول وهلة شهيداً للجيش اللبناني، ثم تبين له أن الصورة لمرشح نيابي، لم تزل على العمود من مخلفات أيام الانتخابات.

ـ من السخيف الذي صمم هذا الاعلان؟

كان يقود سيارته وحرارة أيلول تجثم على صدره برطوبتها المرتفعة، وفجأة تذكر شيئاً عند لمح يافطة «موبيل»، فدخل بالسيارة إلى المحطة، وطلب أن يضعوا في خزان سيارته صفيحة بنزين.

وبينما كان العامل يعبىء البنزين، لاحظ أن التراب يعلو سيارته ويغير لونها. وفكر أن يغسلها بعد أن يفرغ العامل من البنزين. واتجه فعلاً إلى المغسلة.

وهناك أوقف سيارته وخرج منها، وأخذ ينظر اليها، ثم دخل مرة أخرى وأدار المحرك وأكمل سيره نحو الطريق، وسط نظرات عمال المحطة

السريلانكيين الذين قالوا لبعضهم ما ترجمته:

ـ يبدو أنه أحمق!.

ـ انه كذلك. لماذا دخل المغسلة وخرج منها؟!.

ولم يكن الرجل أحمق. لقد قرر بينه وبين نفسه أن يغسل سيارته بعد أن تستتب الأمور في «العالم الجديد». ثم تذكر أمراً جعله يضحك:

ـ حتى «امبراطور» العالم الجديد يترنح بسبب الاقتصاد!.

غريبة في بيروت

كل الذين يعرفون «نجمة» يحدثون عن أناقتها؛ الرجال بكثير من اللامبالاة، والنساء يتحدثن عنها بغيرة وحسد.

أما «اتوال» ـ هكذا تحب أن يناديها الناس ـ فترى نفسها نجمة «غير شكل» ومرجعاً في الأناقة واللياقة وفن التعامل مع الناس، بين الكواكب التي تملأ سهرات «السنوبيزم» في المرابع التي تثير التحدي ولا تمنح الاحساس بالارتياح.

والحقيقة أن رأيها في نفسها وما يقال فيه بعض من الواقع. والجزء الأهم هو أن «اتوال» تقف كل صباح أمام المرآة، لتقلد أمها في أناقتها. أمها باريس. أو أمها لندن. . أو أمها نيويورك. فلا أم مهمة، انما المهم ما تختاره عينا «اتوال» وتدمنه فترة، ثم تنساه وتتباهى بذلك بين أصدقائها:

ـ يا الله. . ما بعرف تيابي القديمين وين صاروا؟!

الحياة الظاهرية لـ «اتوال» تنبىء عن راحة وغنى. فمن يقدر على أن يصفها بالتعاسة، هي التي تذهب حوالى الحادية عشرة إلى محلها لبيع الثياب النسائية الفاخرة، ثم تقضي بعد الظهر في آخر زاوية بالمحل بين المرايا والصديقات للثرثرة. والليل للانطلاق وبناء وتوطيد العلاقات العامة أو لعب الورق.

تربح اتوال كثيراً وتنفق مثله أيضاً. بداية نهارها فراغ وحياتها بلا معنى، لأنها تسعى كثيراً وتحس فجأة أنها لم تحقق شيئاً. ولعل حياتها بعد انفصالها عن زوجها وبيئتها الطبيعية، تحرضها على مثل ذلك الأداء الفارغ البرّاق.

الفراغ هذا، حياة اتوال، وهي دائمة البحث عن «حلم» لتعبئته، ومن ثم تسير حياتها من دائرة إلى أخرى، ولا تصعد أبداً طوابق.

فراغ.. فراغ. أحلام.. أحلام.

هكذا تمضي حياة اتوال، والمحنكون يعرفون كيفية استغلالها والدخول اليها من باب «مزاجيتها». واتوال نجمة في سماء كل الناس، لكنها لم تفلح أبداً في أن تكون شجرة لأحد، ولا لابن يستفيد من ثمارها. وبؤرة مشكلاتها البحث الدائم عن فستان.

المسؤول

الدنيا عيد. كل الأجواء توحي بذلك. زينة الكريسماس في مدخل البناية ذات العشرين طابقاً، وموسيقى وأغاني الميلاد التي تنبعث ناعمة خافتة من أماكن عديدة في المدخل، طوال الفترة من ليلة عيد الميلاد وحتى رأس السنة.

وكان المسؤول قد ترك لتوه سيارته، آمراً حرسه الخاص بالانتظار في السيارة، لأنه لن يتأخر. وهو فعلاً لن يتأخر، ولا يجوز اصطحابهم إلى شقة عشيقته في الطابق السادس عشر لمدة نصف ساعة، يعود بعدها إلى أولاده وزوجته ليأخذهم إلى منزل حماته، لأن عشيقته لم تقتنع بتهنئة العيد بصوت خافت وكلمات مختصرة على التلفون صباحاً.

كان الرجل يقف منتظراً المصعد، وهو يصفر صفيراً خافتاً، ويحاول التأكد من أناقته على باب

المصعد المغلق الذي يعكس صورة من يقف أمامه بظلال خفيفة.

وأضاءت اللمبة التي تشير إلى وصول المصعد إلى الطابق الأرضي، وفُتح الباب وهمّ المسؤول بالدخول.

فجأة لمح شاب يدخل بخطى سريعة من باب البناية متجهاً نحو المصعد، واضعاً يديه في جيوب معطفه الطويل الذي يصل إلى ما بعد ركبتيه بكثير. ولم يدر المسؤول لماذا خفق قلبه بسرعة عندما رأى الشاب الذي دخل وراءه بهدوء وخطوات صامتة، لا تتناسب مع سرعته النسبية في المشي في الردهة الرخامية. وأغلق المصعد بابه.

وتنبه المسؤول إلى أنه لم يكبس زر الطابق السادس عشر فكبسه. وانتظر الحركة نفسها من الشاب الذي أخرج يده اليسرى ببطء وكبس زر الطابق التاسع عشر.

ارتاب المسؤول، الذي كان وزيراً سابقاً، بالشاب، لأنه حتى لم يلق التحية عليه بابتسامة الناس المغمورين التي يبتسمونها للمشهورين! وهذا ما أصعد

الدم إلى وجهه وأنساه بهجة الليلة التي عاشها، والتلهف المسيطر عليه.

ـ أمن يتمتع بهذه الصحة يشعر بالبرد؟

وكاد قلب المسؤول أن يقف عندما فكر للحظة في فكرة سوداء خطرت على باله.

ـ لا أعداء لي، انني لم أتسبب في قتل انسان. ثم أنهم أتوا بي إلى الوزارة لترضية حزبي المعتكف عن المشاركة في الحكم.

ـ ولكن من يدري. لعل أحدهم يبغي رسالة ما إلى حزبي، ومن ثم أرسلوه ورائي.

ـ الخائنة بنت الكلب. لا أحد سواها يعلم بهذه الزيارة.

ـ لا. لا. أنا لم أفعل شيئاً فمن يهتم بي.

وحاول مرة أخرى الصفير الخافت، لكن ريقه كان جف نهائياً، وكل الأنغام التي سمعها في حياته تبخرت.

الطابق الخامس.. السادس.. السابع.

والشاب الطويل الأسمر الرياضي القامة ما يزال

يقف وقفته العجيبة تلك، وكأن لا أحد في المصعد.

ـ انه يريد اذلالي!

الثامن.. التاسع.. العاشر.. حتى أنفاس الوزير السابق لم تعد تتردد في صدره.

ـ لماذا كبس زر الطابق التاسع عشر؟

الطابق الحادي عشر.. الثاني عشر.

ـ يا الله. هل معقول أن يحدث ذلك؟

ـ لا.. لا.. أنا لا أعداء لي.. أنا لم أقتل نملة.. لقد أتوا بي ترضية. ثم انني حتى لم أعد وزيراً.

الطابق الثالث عشر.. الرابع عشر..

ـ ما هي القصة؟! هل أُخليت البناية من السكان. المصعد لم يتوقف أبداً!

ـ انها رسالة!! انهم لا يستطيعون الوصول إلى من يريدون الوصول اليه.

الخامس عشر..

ـ ليتني لم أترك الحرس الخاص تحت.

السادس عشر . . وفتح المصعد بابه.

ـ يا أستاذ أنت وصلت إلى طابقك!

ـ عفواً؟!

ـ وصلت إلى الطابق!

ـ آه . . الحمد لله . . شكراً يا ابني.

وأغلق المصعد بابه.

ـ بسيطة عليك النزول مرة أخرى عندما يصل فوق.

ـ (ضاحكاً ببلاهة) ولا يهمك.

وخرج الشاب في الطابق التاسع عشر بالخطوات الواسعة نفسها، وأغلق المصد بابه. وأمسك الوزير جبهته بيده اليمنى وتنهد وبلع ريقه.

سمير فاضل

اذا كانت الأسماء في بلدنا تعني شيئاً يتضمن الدين أو المنطقة أو المذهب، فان اسم «سمير فاضل» قد لا يعني شيئاً. وعلى أي حال، سمير فاضل هو مسلم يعيش في الأشرفية، ولم يغادرها خلال السنوات الخمس عشرة الأخير، إلا في الحالات التي ترك فيها معظم سكان الأشرفية بيوتهم.

والانسان الذي يرى سمير فاضل لأول مرة، لا يشك لحظة في أنه انسان لبناني، رغم أن ملامح أناس البحر المتوسط تتشابه فيما بينها. وهذا يحدث لنا أحياناً عندما نلتقي شخصاً من اليونان أو فرنسا أو المغرب مثلاً. لكن الجلوس إلى سمير فاضل والحديث معه، يجعل جليسه يحس أنه أمام انسان، عبر نطاق ضيعته، رحدود دولته، وآفاق دينه، وأصبح انساناً باراً فعلاً.

وهو لا يتحدث في السياسة مطلقاً، واذا حاول جلساؤه اقحامه معهم في حديثهم السياسي، يبتسم ويقول:

ـ هذه لعبة للسلطة والمصالح، وأنا خارجها تماماً.

وأحياناً كان يقول: بعد العام ١٩٧٨ لم أعد أفهم شيئاً، فكيف أتحدث في ما لا أفهمه؟!

لذلك كان أمراً طبيعياً أن يكون شاغل سمير فاضل الوحيد هو عمله وأسرته. ومن العبارات المأثورة التي تقال عنه في عمله إنه يشبه الساعة السويسرية في دقتها وبساطتها. وهو بين أسرته مثال الهدوء والابتسامة الدائمة، حتى أثناء المشاكل التي لا تخلو منها أية أسرة. لم يحدث سوى مرات قليلة أن رأته أسرته عصبياً، أو في مزاج غير رائق. ولعل عصاميته وكفاحه منذ صغره جعلاه كما يقول «أقرب إلى روح الوجود والتماس التسامح للناس فلا أحد يعرف ظروف أحد».

هذه الأخلاق وتلك الشخصية الشفافة جعلته يحصل على لقب «عم فاضل» في العمل، ليس بحكم

ملامسته للخمسين وحسب، لكن لأن الجميع كان يحس أنه يستظل تحت تلك السنديانة العريقة، التي تفوح منها رائحة طالما نستفقدها في حياتنا التي يهرول الجميع خلالها، ولا توجد لحظة فيها لتأمل النفس، أو البشر، أو حتى الأحداث.

كانت متعته الوحيدة بعد الظهر، هي الاهتمام بزهوره المزروعة في الشرفة الكبيرة نسبياً. وكان يحب أيضاً مشاهدة الأفلام في الفيديو. ومما كان يقوله عنه: الخمسينيون في لبنان يشاهدون الفيديو أكثر من أطفال العالم!

لكن تلك السجايا والمتع البريئة، بدأت تشوبها منذ العام ١٩٨٥ مسحة عصبية، وملل لم يكن من طباع «عم فاضل». ثم زادت مساحة تلك المسحة على خريطة سلوكه مع الناس، وأصبح شيئاً فشيئاً وشهراً بعد شهر، يحس أنه يخسر ركناً هاماً من شخصيته، هو الصفاء في التعامل مع الأمور.

أصبح أكثر أوتوماتيكية في التعامل مع الناس، يتلقى الأوامر من الأعلى مرتبة منه في العمل، وينقلها إلى الأصغر، كأنه جندي في الجيش، وليس موظفاً

كبيراً من حقه أن يناقش في مصلحة العمل، أو في ما يضره، وليس التنفيذ فقط.

كما أصبح أكثر عصبية في البيت، ولم يعد صبوراً على الاستماع إلى أولاده أو معالجة مشاكلهم. حتى امرأته طالتها تلك التغيرات، لأن اللحظات الحميمة التي تجمعهما، قد تباعدت كثيراً، عندما اكتشف فاضل أن هذه اللحظات تحولت إلى لحظات تنفيس مما يعانيه، وليس إلى لحظات حب ومودة كما كانت.

ولما تأكد فاضل من أن سبب تلك الأمور، يعود في جوهره إلى أحواله الاقتصادية التي تتدهور ـ كما هي الحالة مع معظم الطبقة المتوسطة التي تكاد أن تتلاشى في لبنان ـ سعى إلى الالتحاق بشركة حديثة من تلك الشركات التي أسسها مستغلو الفوضى في البلد، فلا ضرائب مثل دول العالم، ولا مراقبة عليها. ومعاشاتها أعلى مما هي عليه في باقي المؤسسات.

ولامه بعض زملائه على ذلك القرار، لأنه يترك مؤسسة عريقة ويذهب إلى شركة صغيرة، وكانت اجابته.

ـ عندما أدخل السوبر ماركت، ادفع مصاري، ولا يطلبون مني «برستيج» مؤسستنا!

هكذا ترك سمير فاضل كل شيء وترك ضمانه الاجتماعي والصحي كأي مبتدىء في الحياة العملية، من أجل معاش أكبر، يضمن له نوعاً من اشباع حاجات الحياة ومتطلباتها التي لا ترحم. لكن تزايد الأسعار الجنوني والمتواصل، لم يجعله ينعم بحلمه الجميل طويلاً. حاول جهده أن يقفز نحو الراحة، فوجدها سراباً بالنسبة إلى من يعيش بمعاش محدد في بيروت، حتى ولو كان كبيراً نسبياً.

أصبح وجهاً من وجوه بيروت المرهقة، بحثاً عن الأمن، أو الأمان، أو الاستقرار المادي، أو الاستقرار المعنوي، كما أصبحت حياته نوعاً من «سمّة البدن» المتواصلة.

«سمّة بدن» عندما تصله أقساط مدارس أولاده.. «سمّة بدن»، عندما يذهب إلى السوبر ماركت وتفاجئه فاتورة الأسعار.. «سمّة بدن» بسبب تكاليف وصيانة موتور الكهرباء في منزله.. «سمّة بدن» بسبب انقطاع البنزين.. «سمّة بدن»، بسبب انتقاله من الطابق الرابع

إلى الملجأ بسبب التقاصف المدفعي.. «سمّة بدن» بسبب المعابر، قديمها والحديث منها.. «سمّة بدن»، في العمل. فالجميع ليسوا طبيعيين.

ضغوط نفسانية هائلة، صمد أمامها فاضل بسبب تركيبة جسده الجيدة، لكن روحه أصبحت صدئة وعجوزة وملولة.

وحدث يوماً أنه كان في العمل بعد وقوف دام ثلاث ساعات أمام محطة البنزين، وكان صاحب العمل يغلي ويثور بسبب قلة النظام، وعدم ايمانه بشيء اسمه «ظروف البلد».

ـ كنت صاحب مؤسسة في نيجيريا تضم ١٧٠ عاملاً، وكانت منتظمة مثل الكون الذي خلقه الله!

ويبدو أن صاحب الشركة كان مثقفاً إلى جانب كونه عدوانياً، لأنه زاد: الكون؟! كانت أضبط من الكون.. أعطوني مادة الكون وأنا أخلق لكم عالماً خالياً من اللامعقول والعذاب والأوجاع!

وهنا أستيقظ داخل «عم فاضل» انسان بدائي، لا شأن له بالانسان المجتمعي الذي يخاف على سمعته، أو رزقه، أو مستقبله، فصاح في الرجل:

ـ مادة الكون تُخلق ولا تُعطى يا مغرور. وأنت أعجز من أن تخلق جناح بعوضة، أو المخلفات التي يصنّع منها ورق التواليت!!

ـ «عم فاضل»... أمجنون أنت؟!

ـ نعم! لأنني لم أثر لكرامتي ضد واحد من أولئك الذين أذلوني، أو «سمّوا بدني». تقبّلت كل الأمور بخنوع عجيب.

ـ فاضل!!

ـ لا فاضل ولا ناقص.. فاضت روحي منك ومنهم.

وتطور النقاش واحتدم، إلى أن تهالك فاضل على أقرب كرسي، ووجهه محتقن بلون أزرق وفي المستشفى أدرك الطبيب أنه أمام حالة عصبية حادة، وليس نوبة قلبية، عندما همس فاضل بصوت واهن كسكران يهذي:

ـ كلهم يعملون لمصلحتهم... أنا مش مبسوط، وعايش في «سمّة بدن» متواصل.

حكاية خاصة جداً

فتحت الباب ودخلت بهدوء، واندهشت من رؤيته جالساً ـ وكانت المرة الثانية ـ في زاوية من غرفة الصالون، تحت ضوء خافت، وكأنه كان ينتظرها. أما هي فقد تابعت سيرها في الردهة نحو غرفة نومها، بعدما ابتسمت له ابتسامة بيضاء، وحيته تحية المساء.

ورغم سيف اللامبالاة الذي فرق علاقتهما الزوجية، إلا أنها كانت تزيل مكياجها، وتغيّر ثيابها وترتدي ثياب النوم، وهي تفكر فيه، وفي جلسته الهادئة ـ التي تكررت ـ وعيونه التي تكاد أن تتكلم. وقد ألحت عليها حشرية الأنثى أن تعرف، ماذا خلف الجلسة ونظرة عيونه تلك.

كانا قد تزوجا بعد قصة حب عجيبة سريعة، اذ تصادف أنها ذهبت مع صديقاتها إلى حفلة، وكعادة البنات في الحفلات، ألحّت صديقاتها عليها لكي

ترقص، بعدما رقص البعض منهن. وعندما بدأت ترقص بخطواتها المتعثرة الخجولة، ترك عازف الأوكورديون مكانه في الفرقة الموسيقية، واقترب منها، وأخذ يعزف عزفاً جميلاً ساحراً، انساب ايقاعه في عروقها وروحها، وجعلها خفيفة نشيطة، ترقص بجرأة وانطلاقة لم تعرفها في حياتها من قبل. وعندما انتهت الرقصة وسط دهشة الحاضرين وتصفيقهم، مدت يدها اليه مصافحة وقائلة:

ـ Merci أحسست أن باباً يخفي وراءه قوة انفتح في روحي!

ومنذ تلك الليلة بدأت علاقتهما؛ عازف الأوكورديون وهي. وقد تعجبت فيما بعد عندما عرفت أن حبيبها معه شهادة مهندس ديكور.

ـ العزف يجعلني أربح أكثر الآن، لأن البيوت التي تُهدم أكثر من البيوت التي تعمر!

ـ على أي حال، الديكور فن والعزف أيضاً!

ولعل مزاجيتها وطبعها الهوائي، قد توافقا مع حياة ذلك الشاب الغريبة، التي تعتمد على الصدفة والاستفادة منها، فلا برنامج محدداً في حياته، وكأنه

يعيش يومه، ولا يعرف أي شيء عن غده.. لا بل هو يعيش ساعته، ولا يعرف ماذا يكون في الساعة التالية.

أما هو فكان أكثر ما جذبه اليها هو جمالها العجيب، الذي لا يثير الغرائز، بالرغم من أنها فتاة شقراء، طويلة القامة زرقاء العيون!! ولعل سر عدم اثارتها للغرائز والتفاف المعجبين حولها، هو براءة روحها وبساطة تعاملها مع الناس. لذلك كانت صيداً بعيد المنال، لمحترفي الايقاع بالنساء لأنها لن تفهم عليهم. كما أن تربيتها في مدارس الراهبات، جعلتها تنظر إلى الاعجاب والجنس والعلاقات مع الشبان، نظرة شك وخطيئة وعدم احترام.

كل ذلك فهمه هو بخبرته كشاب، وأيضاً بحكم خبرته كعازف في المرابع الليلية، يعرف كيف يمايز بين الناس.

ثم تطورت علاقتهما بسرعة سريعة خلال بضعة أسابيع، لدرجة أنها طلبت منه أن يتزوجها، اذا كان يحبها حقاً. وهو كان يحبها حقاً، لكنه كان يخاف من طبعها الهوائي، واحساسها بالملل بسرعة. الملل الذي

يدفعها إلى تغيير حلقاتها بعد أن تلبسها مرتين أو ثلاثاً على الأكثر!!

وعندما تقدم لطلب يدها، تمنت عليه أمها أن يكون صهر بيت، لأن ابنتها وحيدة، وزوجها وأولادها يعملون في الخارج، ويزورون لبنان من حين إلى آخر. وبعد بضعة شهور تزوجا، وعاشا شهور ما بعد الزواج الأولى في اندفاع جسدي محموم، كانت هي شرارته، ولم يعكر صفوه سوى طلبها أنها لا تريد انجاب أولاد في أول سنوات زواجهما.

وبدأ هذا الاندفاع يفتر من جانبها بدرجة ملحوظة بعد بضعة شهور وأخذ هذا الفتور يتطور، إلى أن فاجأته يوماً بقولها:

ـ فتاة أعجبت بعازف في لحظة نشوة، ما كانت علاقتهما يجب أن تنتهي بالزواج!!

ـ تتعاملين مع كل شيء بمزاجية، فحاذري لأن الزواج ليس حلقاً تغيّريه وقتما تريدين.. وقد حذرتك قبل الزواج.

أخذ الفتور يتحول إلى غضب مكتوم في قلب كل منهما، ولأسباب تختلف تماماً بالنسبة لكل واحد

فيها، لكن الندم كان الجامع ما بين القلبين. لذلك كان طبيعياً أن يخلق كل واحد منهما حياة لنفسه تنفصل عن الآخر، لا تجمعهما فيها سوى ذلك البيت المشترك. وقد طلب منها بعد ذلك أن ينفصلا بحياتهما العجيبة تلك في شقة بعيدة عن أمها، اكراماً لصورة مؤسسة زواجهما أمام العيون، خصوصاً بعد تفرغه لمهنته الأصلية.

ومنذ الانتقال ـ الذي تم بعد مخاض عسير مع الأم ـ أصبح لكل منهما حياته الخاصة، كما بدأت هي تعمل في الترجمة، هروباً من الملل، وليكون لها نوع من الاستقلالية المادية.

وفي حياتهما المستقلة حافظا على «ديكور» زواجهما أمام الناس. فكانا يزوران ويُزاران. وكان يوصلها أحياناً إلى عملها عندما تتعطل سيارتها. ومن المؤكد أنهما كانا يشتاقان لبعضهما جسدياً، لكن النفور، والغضب المكتوم، و«الأشياء الصغيرة» التي تُعاش ولا تُقال، كانت قد فصلت بينهما نهائياً.

كان هو مطمئناً نسبياً إلى احساسه بأنها لا تخونه، نظراً إلى معرفته الوثيقة بها وبطباعها. لكن ثورة الشك

أحياناً كانت تقذف بركان سموم الغيرة في قلبه. وسرعان ما يهدأ اذا تذكر أنها لم تزل تستخدم الاكسسوار لابراز أنوثتها، بدلاً من جمالها الراقي وجسدها المتناسق البديع!!

وأحياناً كانت الثورة تمحو تفكيره العقلاني نهائياً، فيقول في قلبه:

ـ تصطفل! فأنا لا أعيش قديساً.

لذلك عاش وقناع لا مبالي جامد يعلو سحنته أمامها دائماً. وعاشت هي حياتها الطائرة، تحاول فيها خدمة من يحتاج في العمل، وتبحث عن الضحكة بشكل محموم، وتغير ملابسها واكسسورها بشكل لافت، ويحوم حولها الرجال وتقابلهم هي بتلك الضحكة التي تغيظ أكثر مما تعطي الأمل فيها، أو في مودتها الحميمة.

ومن ثم كان تعجبها منه، ومحاولة معرفة ما وراء انتظاره المفتعل مرتين. وبينما كانت هي تتقدم نحو مجلسه، أحست بأن ابتسامتها البيضاء لم تفلح في ازالة القناع الجامد اللامبالي الذي يعلو سحنته، فبادرته قائلة:

ـ خيراً. أراك لمدة يومين قلقاً.

ـ بصراحة نعم. حياتنا المنفصلة التي نعيشها أصبحت عبئاً، ثم انها أخذت تتجه نحو الخطر.

ـ عبئاً أو نعيماً. اخترناها بموافقتنا. لكن الخطر لا أفهمه.

ـ ذلك الرجل الذي يحوم حولك!

ـ من قال لك؟!

ـ أتجهلين أن نصف البلد يعمل في الاستخبارات من حيث يدري أو لا يدري؟!

ـ هو صديق ليس الا.

ـ صديق خطير وأنا أحذرك منه.

ـ خطير! لماذا؟

ـ لأنه سيجعلك مومساً!!

ـ أنت وقح فعلاً.

ـ هذا الرجل صانع للمومسات، وأكيد أنه عرف ظروفك وشخصيتك.. وهي مناسبة فعلاً لصنع مومس. وأنا أحذرك فعلاً ولا أمزح.

ـ أنت وقح فعلاً.. مومس؟!

ـ لا تنسي خبرتي الليلية السابقة!!

ـ كيف تجرؤ هكذا وبكل بساطة على اتهامي؟

ـ لا أتهمك، لكنني أصرّح بمشروع صديقك.

ـ أنت وقح فعلاً وسافل.

ـ أنت انسانة مزاجية، وأنا حتى الآن ما زلت أحترم الانسانة فيك.

ـ قه.. قه.. قه.

ـ ميرنا.. من الممكن أن تتطور اتهاماتي واستفزازك إلى ضربك بالكف، ثم إلى عراك، أو تكسير أغراض المنزل، وقد أخنق عصفورك المحبوب لكي أغيظك..

ـ ثم ماذا يا جهاد؟

ـ كل هذا لن يفيد. والمطلوب فعلاً هو التفكير في حل نهائي لمشكلتنا. اما أن نعيش بصورة طبيعية، وتنسي مزاجيتك وتحاولي النضوج.

ـ أو..

ـ ننفصل بالطلاق ولن نعدم طريقة ما.

ـ طلاق؟! مستحيل.

ـ لا شأن لي باسم العائلة الكريمة، فأنا أعرف هذا الاسم كيف تكوّن. والأوهام ممنوعة.. والتكاذب أخطر من السموم.

ـ خيار واحد أمامنا هذا الأسبوع.. أما الحياة معاً بصورة طبيعية جداً.. أو الانفصال بكرامة.

فرنسيس مطران في بلد العجائب

لما كان فرنسيس مطران في عمر الأحلام، وعى حقيقة سماعية مدهشة، هي اختلاف لهجة جدّيه عن اللهجة التي كان يسمعها في عالمه الصغير. وعندما تساءل عن ذلك الاختلاف، أجابته جدته:

ـ أنا وجدو يا فرنسيس من لبنان.

وبحشرية الأولاد الصغار، سألها عن سبب تركهما لوطنهما فأجابته:

ـ لأننا نريد أن نعيش في بلد أكثر أماناً.

وعندما طالت قامة فرنسيس مطران، أدرك أن «أكثر أماناً» تعني عدم قيام مذابح كل كذا عقد من الزمان، ومن ثمّ تفهّم سر الحزن الدفين السابح في كيمياء دم جدّيه.

وبمرور الأيام لاحظ مطران أن جدته تنفرد عن النساء الأخريات، بما تطبخه، خصوصاً أيام الآحاد

والأعياد. كان يحب أن يتنصت من بعيد على «أغانيها الخاصة» التي كانت تغنيها وهي تطبخ، أو أثناء عملها في ترتيب البيت.

استطاع مطران من خلال أحاديث جدّيه، أن يكوّن فكرة عن ذلك الوطن ـ الحلم الذي عاشا فيه، وتركاه بطريقة دراماتيكية. فقد قالت له جدته:

ـ تركت لبنان بفستاني فقط يا فرنسيس!

ـ وجدو؟

ـ لم أكن أعرفه بعد.

ـ تزوجتما هنا؟

ـ ايه.

ـ لماذا؟!

ـ لأننا تفاهمنا مع بعض.

عاش فرنسيس مطران في البلد الذي هاجر جداه اليه، مع والدين يتكلمان بلغة ذلك البلد، لكن بقلب لبناني. وقد لقي نجاحات كثيرة في ذلك البلد. وهو في خلال حياته هناك، لم يكن ينسى شيئين. أولهما أن جده قد سافر إلى لبنان عشية استقلاله، ليحضر رفع العلم اللبناني وانتهاء الانتداب الفرنسي! أما الثاني

فكان رجوع جده إلى لبنان، بعدما أحس بأن نهاية عمره تقترب.

ومطران لم ينسَ الساندويتش الذي أعطاه جده له، والجميع ينتظر انتهاء بعض معاملاته، قبل طلوعه على السفينة. كان ساندويتش مربى، لم يستطع مطران أن يأكله لأنه كان يبكي.

كان مطران يفكر كثيراً في الوطن ـ الحلم، وكان يشتهي أن يزوره. وعندما وصل إلى بداية مرحلة الرجولة، فكر بعمق لبضعة شهور، وقرر العودة إلى موطن جدوده الذي تمتد شلوشه فيه. ولعل سبب تلك العودة، هو أن نداءً للمجهول سيطر على قلبه فعاد كما الطيور المهاجرة.

وصل فرنسيس مطران إلى بلد أجداده، وكان أول ما أدهشه هو البانوراما الجبلية الشاهقة، التي رآها والسفينة تقترب من مرفأ جونيه. وفي الأيام الأولى بعد وصوله، كان يتعجب من كيفية زرع مدافع السبعينيات، في بلد يحتوي على هكذا جمال. وكيف لم يستطع ذلك الجمال الرائع زرع الصفاء في نفوس أهله.

وعندما طلع مطران إلى الجبل لأول مرة، ورأى قرميد بيوت المتن، وتجول في الأحراج، استطاع أن يستوعب أكثر غناءً جدته، والتذ بالأداء الذي يشبه ترديده دق القصب في الجبال، وجعل يردد بصوت منخفض ما كان يسمعه من الأغاني البسيطة، العميقة المعنى، من جدته.

استطاع فرنسيس مطران دخول عالم الصحافة الذي يحبه. ولأنه لم يكن ينتمي إلى أية فئة متحاربة، أتيح له التجول في لبنان بحرية أكثر، بدءاً من بيروت حتى الشمال فالجنوب.

وكان يترسخ في وجدانه أثناء تجواله، شعور داخلي هو تغلب جغرافية البلد على أهله، بسبب عدم اقامة جسور تربط تلك الجبال ببعضها، وعدم مدّ الكهرباء إلى المناطق النائية، والطرقات الرئيسية والفرعية التي تشق الجبال.

ورغم مرور سنوات على اقامة مطران في وطنه، لم يزل بعض الناس أحياناً، يداعبونه بلهجة البلد الذي عاش فيه، ومطران يقول في قلبه: الناس تحب أن تميز الأفراد، ذلك بسيارته. وذاك بمنطقته، فلا بأس

ان ميزوني بلهجة البلد الذي أتيت منه.

ثم تصادف أن سمع مطران عبارة عجيبة من كاتب، معروف عنه أنه يخلط الأسطورة بالواقع، ثم يكتب التاريخ. وكانت تلك العبارة تقول إن الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، أصله لبناني واسمه الحقيقي فرنسيس مطران!!!

ومن يومها لم يستطع مطران اللبناني، أن يطرد فكرة معينة عن المآسي التي يعيشها وطنه. تلك الفكرة التي مفادها أن مشكلة بلده الأساسية هي الانتماء.

فذلك البلد الصغير جغرافياً لم يستطع عبر السنوات والأجيال، لملمة أمعائه وشعوره داخل حدود الوطن، ولم تقدر الدولة فيه أن تربح انتماء الأقليات التي تعيش فيه بالتراضي والرضى.

كما ساعدت الجغرافيا الوعرة على وعورة القلوب، وتغلب إحساس الوحشة والمناطقية.

ورغم كل ذلك ما يزال فرنسيس مطران يستقبل كل صباح جديد، بأمل جديد، محاولاً طرد فكرة الافلاس المعنوي من قلبه، وآملاً في اقتلاع مدافع السبعينيات من وطنه.

عيون الموتى

في عمق روحه كان هناك هاجس يستدعيه أحياناً حتى يحفظ عقله من الجنون: «هناك كثيرون مثلي، وكلنا كان يضع قناعاً على وجهه، فلم نر بعضنا بعضاً».

والغريب أنه حاول مراراً الرجوع إلى أبعد نقطة في ذاكرته، فلم يجد سوى أمه وأخته وهو في «السرفيس»، وهم يتجهون إلى مكان آخر، بعدما نفذ سيف الجنون إلى أعماق النفوس، وجعل الناس في أماكن متفرقة من لبنان، تنزح بعيداً عن أرضها وجذورها.

قال لهم سائق السرفيس قبل أن يتحركوا من آتون اللامعقول: «تعلمون أنني أنقلكم بدافع الجيرة والخبز والملح. واذا صادفنا حاجز طيار، انبطحوا في أرضية السيارة، واذا أوقفتها وتكلمت معهم لا تتدخلوا».

والشخص الوحيد الذي شذ عن هذه القاعدة كانت أمه، وحدث ما حدث.

ولمّا وصلا هو وأخته إلى بيروت، تصرفت أخته الأكبر منه تماماً مثلما كانت تنوي أمهما، وذهبا إلى ملجأ للعجزة كمحطة أولى، وذهول مراهقيّن من هول ما حدث، يشل حتى حركات معدتهما اللاارادية. ومرت شهور عليهما في ذلك المكان، إلى أن انتقلا إلى احدى الغرف في مدرسة أُخليت خصيصاً لايواء المهجّرين.

وتدافعتهما الحياة في شكل لم يكن لارداتهما فيه أي نصيب. سنوات الدراسة أصبحت حلماً بالنسبة اليهما انتهت ولن تعود. والهم الأكبر كان القوت والاستمرارية فقط في هذه الحياة التي خلت من أي نقطة رحمة لهما. فمن عمل إلى آخر، ومن سراب إلى وهم، حتى أيقنا، بعد نقاش وتفكير، أنهما حتى بين الناس الذين ينتميان اليهم طائفياً، لا مكان لهما إلا بقوة الذراع في حطام الحياة الذي يعيشان بين اطلاله.

وذات يوم نصحه أحدهم بالانتساب إلى الميليشيا التي تهيمن على المنطقة.

ـ الانتماء إلى الانسانية بالمطلق لا وجود له. اذهب اليهم حتى لا تموت جوعاً.

وانضم إلى هذه الميليشيا وهو مؤمن عقائدياً بما يفعل، بفعل الأجواء النفسانية التي حوله. لكنه أعاد النظر في كل ما كان يؤمن به، بعد أن قتل أحدهم شخصاً وجده في السرير مع زوجته. وبعد أيام وجد صورة القتيل على حيطان أحياء أخرى وعليها عبارة: «مات ليحيا لبنان» في أسفل الصورة. وقالت له أخته:

ـ هل ستستمر؟

ـ انني مأزوم ومحصور بين نارين، لكن عقلي هداني إلى الجنة التي ستريحني. لذلك استمر في «وظيفته»، وذهنه خالٍ تماماً من كل ما آمن به أيام عذرية تفكيره وفي ليلة بدون ضوء قمر، وصل إلى إحدى قيادات الميليشيا التي «يعمل» فيها شخص من أبناء منطقته، فاقترب منه وأصبح من «المقربين»، وفجأة وصل إلى ما اصطلح المواطنون على تسميته «رئيس زاروب».

ـ الوصولية! كلهم استفادوا من المحنة فلماذا أبكي؟

وفي هذا المنصب تفتحت عيناه على أمور لم تخطر له ببالٍ، وأيقن بعقله الذي كان لا ينام معه ليلاً، ان الكل يخاف من الكل، والشاطر من يمثّل جيداً بين أطياف الخوف والأوهام. وتشاء الظروف أن يصل البلد آنذاك إلى مرحلة، حسبها الجميع بداية الخلاص، واذا بشخص يهمس له مخلصاً:

ـ بعد ما بلشنا!

ـ ما هذا الجنون؟

ـ هذا هو الواقع!

ـ الواقع هو الجنون؟!

وبدأت فعلاً مرحلة الجنون، وذات يوم أتاه رجل ليلاً (في غرفة قيادته) وشرح له كيف أن بنايته أصبحت لا تدر عليه أي مردود، فلم يعد أحد يدفع الايجار. ولما ضحك وأخبره أنه ليس رئيس مخفر، أجابه الرجل وهو يثبت نظرته في عينيه: «لكن بنايتي في موقع استراتيجي بالنسبة اليكم، انها تحجب رؤية منطقة ـ عسكرية ـ مهمة». وأن خمسة آلاف دولار في انتظاره لو هبطت البناية.. ففكر ملياً وقال:

ـ انهما بنايتان متجاورتان ولهما اللون والمواصفات نفسها.

ـ اذاً عشرة آلاف دولار في انتظارك!

وأحس بعد فترة أن العشرة آلاف هذه، كانت فاتحة خير عليه! فلم يلبث أن استُدعي للسفر لانجاز جلب سلاح خارج الحدود مع أفراد من «المقربين» مثله. ولم يفهم في البداية أمر تكليفه سوى هناك. فهناك قبض «عمولة» لم يدر ما الداعي من وراء الانعام بها. ولم يسأل لأن ما أخذه أدار عقله، وجعله أكثر ثباتاً أمام أي أمر من شؤون الحياة و«الجنون» ماعدا أخته.

ـ عيناك أصبحتا تشبهان عيون الموتى.

ـ (متنهداً) وبعيون الموتى عشت واستطعت أن أزوِّجك في أبهى شكل.

ـ الناس تتهامس بفظائعك.

ـ «نحن» لا يهمنا محبة الناس. يكفي أن يخافوا منا.

ـ هل «أنتم» لتخويفهم أو للدفاع عنهم؟

ـ (ضاحكاً بما يشبه الهستيريا) مِن مَنْ؟!

وذات ليلة بينما كان يتسامر مع بعضهم انتحى به شخص.

ـ أصبحت متمولاً وهذا الحال لن يدوم.

ـ لِمَ تنصحني؟

ـ لحسن حظك أنك عشت الجنون ولم تصب بآفة.

ـ فماذا بعد؟

ـ اعمل في التوظيفات المالية.

ـ هذه لعبة لا أفهمها.

ـ اذاً كن عاقلاً وكن شريكي.

وكانت معلومات الرجل صحيحة، لأن البلد دخل نفقاً معتماً خرج منه إلى هدوء لم يصدقه الناس أولاً، ثم صدقوه بعد ذلك وهم في شك منه. وحُلت الميليشيات، وتطورت «اللعبة» التي دخل فيها من التوظيفات المالية إلى شراء الأراضي فبناء العقارات بالتقسيط، مع المحافظة على المنبع الذي بدأ منه واعتبره العمود الفقري لكل ما حدث وسيحدث.

دخل إلى مكتبه رجل ذات يوم، لم يدر لماذا تذكر مصطلح أخته «عيون الموتى» عندما رآه. وعرف ما كانت تعنيه أخته تماماً. ووجد أنه لا يستطيع التركيز معه أثناء «حديث العمل»، فخرج عن الموضوع فجأة وهو يحس أن طاقة معذِّبة خرجت مع سؤاله:

ـ قل لي بصراحة. هل ألقيت علينا قذائف أثناء الجنون؟

فابتسم الرجل ونكس رأسه ثم رفعها قائلاً: أظن أنني فعلت مثلما فعلت أنت.

ـ وهل تثق بي؟

ـ (بعد تفكير) مصلحتنا مشتركة.

ـ الثوار أصبحوا متمولين!

ـ لا تنظِّر حتى لا تتعب! لقد تآمرنا كلنا في براءة وطهارة!

ـ واحتراف.

وعندما انتهيا من زوايا أحاديثهما كافة، أوصله إلى باب مكتبه، ورجع وهو يلقي نظرة جانبية في مرآة

على الحائط. وجلس وجعل ينقر باصبعه على زجاج المكتب. ثم خرج بعد فترة وهو يخبر السكرتيرة أنه مرهق ولن يعود اليوم. وأدار سيارته وذهب إلى بيت أخته.

حالة ميؤوس منها

نشأ «بطرس المحترم» في أسرة جعلت التدليل وسيلة تربيته. ثم أصبح التدليل وسيلة لارضائه، عندما تطور من مرحلة الحبو، إلى المشي على قدميه.

فكان «بطرس المحترم» اذا كسر أي شيء في البيت، لا يجد من أبويه عقاباً أو ردعاً. واذا اشتهى شيئاً، أو رغب في تحقيق غاية، ولم تلب رغبته، كان يعمد إلى الغضب والقهر والدق برجليه على الأرض حتى تلبى رغبته.

ثم تطورت الأمور مع «بطرس المحترم» ما بين السابعة والعاشرة من عمره، فكان يعمد إلى العدوان على أترابه، اذا ذهبوا عنده، وجعلوا يلعبون وخسر هو في اللعب، لأن «بطرس المحترم» قد تعود على عدم الخسارة، وتلبية كل رغبة من رغباته.

وكانت أمه اذا سُئلت عن سبب تدليله المفرط

تقول.

- «بيتر» وحيد عندي، وهو وحيد في عائلة أبيه أيضاً.

ونتيجة لذلك التدليل المفرط، وعدم اللوم والعتب عليه، تغلبت عاطفة العدوان والانفرادية، على سائر العواطف عنده. وعاش تقريباً وحيداً في البيت كما في المدرسة. يزوره أحياناً رفقاء له، عندهم ميوله العدوانية نفسها، أو ممن يحبون الخنوع للغير، والصبر على عدوانه عليهم.

في عمر الثالثة عشرة بدأت مظاهر الفشل الدراسي، تظهر بشكل ملحوظ على «بطرس المحترم»، كذلك بدأ ميله للتدخين بين «تطنيش» والده، وفرحة أمه به: يسلم لي صار رجّال!

كما بدأ ينتبه بشدة إلى وجود الفتيات الأكبر عمراً منه، ويطاردهن بألفاظ وقحة، لأن الشهوة الجنسية عنده كانت رمزاً للعدوان.

وقد زوجوه أهله في عمر مبكر، للتدليل أيضاً. وعاش مع امرأته في منزل اشتراه له أبوه. وما أن انقضت بضعة أيام على زواجه، حتى بدأ يضرب

زوجته، وعقب ضربها وسماعه للصراخ والاسترحام، يعمد إلى اشباع رغباته الجنسية، ويعود للصلح والاسترخاء، بعد افتعال الخصومة والاشتباك.

كانت حياة «بطرس المحترم» عجيبة حقاً بعد زواجه. فهو لا يعمل عملاً فيه معاش ودوام. كان يعمل متقطعاً، ويذهب ليأخذ أموالاً من أمه دائماً، وهي على طاولة القمار مع صويحباتها مساءً.

عاش وحيداً منفرداً حتى أنه لا يخرج أياماً من غرفته، واذا خرج يخرج ليلاً، ليذهب إلى أصدقاء يشتريهم بزجاجة ويسكي وقطعة حشيش، ليعود قبل الفجر، ويدقق في مصابيح سيارته ليتأكد من أنه قد أطفأها!

كانت الوحدة تلذ لـ «بطرس المحترم»، لأن خواطر اليقظة، وهو منفرد، تعطيه انتصارات حاسمة على الذين اعتدوا عليه، فصد عدوانهم؛ وكانت الوحدة تعطيه قيمة لا يجدها في الحياة الحقيقية. وكانت زوجته تسمعه أحياناً، وكأس العرق جليسه، يسب أناساً لم تعرفهم ولم تسمع بهم من قبل.

وتصادف ذات يوم أنه دعا حماته إلى العشاء

والنوم في منزله، وكانت أمه هناك أيضاً. وعلى العشاء دار حديث حول حياته ووجوب تغييرها للأفضل. وتطورت الأمور من النقاش إلى هجوم معنوي كاسح من حماته عليه، افحمه واخرسه، وهو المعتاد على العدوان والانتصار، سواء كان وهمياً أم حقيقياً.

فكان أن قرر «بطرس المحترم» انتقاماً عجيباً بعد انتهاء العشاء، وذهابهم للنوم. وقد تجلى له ذلك الانتقام بصورة مباغتة، وهو يكمل شرب خمرته وحيداً مع سيكارة، فجعل يبتسم ويضحك في قلبه من براعة الانتقام.

تحرك «بطرس المحترم» من غرفته، قاصداً الغرفة التي تنام فيها حماته لاغتصابها! وبعد دقائق معدودات استيقظت زوجته على أصوات خافتة وارتطام أشياء بالأرض، فقامت من نومها، وتوجهت نحو الأصوات الغريبة، لتجد أعجب مشهد رأته في حياتها: زوجها المخمور وهو يغتصب أمه التي تقاومه بكل ما أوتيت من قوة!!

وبيديها المرتجفتين وصوتها الذي بُح من هول الصدمة، كانت زوجته تحاول ازاحته عن جسد أمه

وهو في كامل طغيانه الجنسي.

ونهضت حماته من نومها في الغرفة المجاورة، ورأى الجميع تلك الجريمة التي تمت في الظلام. وأسدلوا الستار عليها فيما بعد، بصمت مطبق لأن الفضيحة تهم الجميع وتمسهم.

إلا أن الأم المفجوعة المصدومة في ابنها المجرم، طلبت منه بعد أيام أن يشرح لها ما حصل. فأخذها بسيارته إلى مكان ناء في أحد المرتفعات، وأخذ يشرح لها ما حصل، وكيف كانت حماته هي المقصودة.

كان «بطرس المحترم» يتكلم، بينما صور حياته تمر في وجدان أمه، فعلمت أنها بتربيتها المخطئة قد قدمت وحشاً إلى المجتمع وليس انساناً، وحشاً معتداً لا يصلح لأي عمل، ولا يستطيع تحمل أية مسؤولية. العدوان والتخريب أصبحا كيمياء دمه.

ومن ثم أحست بندم لم تشعر بمثله من قبل في جميع حياتها. ندم جعلها تكرهه، وتكره نفسها وتكره الكون كله، بسبب جرحها البليغ.

وعندما طلب منها النزول من السيارة، لكي

تساعده على الرجوع إلى الخلف، لأن الظلام وراءه لا يتيح له ذلك، لم تدر كيف طلبت منه أن يرجع أكثر فأكثر، إلى أن تهور بسيارته في الوادي، ومات في الحضيض.

وأثناء عملية الدفن، سكت شهود الاغتصاب على احساسهم بالجريمة الثانية التي حدثت في الظلام، لأن الفضيحة تهم الجميع وتمسهم.

أشياء محبطة

كان يجلس صامتاً ـ على غير عادته ـ بين أصدقائه الثلاثة، والأحاديث تنطلق وتتشعب وتتعانق، تماماً مثل تموجات دخان السجائر الذي كان يملأ الغرفة. وكان أصدقاؤه بين الحين والآخر يحاولون أن يخرجوه على صمته، أما هو فكان يبتسم لهم ولا يقول شيئاً.

وعندما ألحّوا عليه في السؤال عن سبب صمته، أجاب باقتضاب: محارة الصدف تكاد تخنقني.

أجاب أحد الأصدقاء: يا علي كلنا نعيش في تلك المحارة.

ـ نعم. ولكنني أحس أن قلبي يُعصر.

ـ حاول أن تتناسى أو تتأقلم.

ـ أحاول. لكن عملي لا أحبه، وغدي لا أعرفه، ويومي مشحون بالضيق.

كان الضيق والتبرم يصيب علي خليل أحياناً. لكنه منذ شهور وقع فريسة لضيق وتبرم لم يستطع مطلقاً التخلص منهما. ومما زاد من حدتهما وقوعه أسيراً لعادة التدخين، وهو الشاب الرياضي المحافظ على صحته.

ولعل التدخين كان يجعله يحس أنه يَنْفُث تبرمه مع الدخان الخارج من فمه أو أنفه، وليس بسبب حبه لتلك العادة أو عدم امكانه التخلص منها.

كان علي من سكان كورنيش المزرعة، خلف جامع عبد الناصر، وهو شاب في الخامسة والعشرين، متعلم وصل في علومه إلى أن يكون مهندس كمبيوتر. وعندما نزل إلى مجال الحياة العملية، وجد أن طموحه الكبير وامكاناته الممتازة تصطدم دائماً بطلب وظيفة ذات امكانات محددة، وكأن الطموح الكبير ممنوع.

لذلك قنع علي بوظيفته الحالية على مضض، وظل قلبه مشغولاً بمجال تنطلق فيه امكاناته وقدراته.

وربما كانت طبيعة دراسته، هي التي أتاحت له الهروب من واقع الانسان اللبناني، السجين داخل

تعقيدات واقعه الطائفي، المختزن للذهنية الطائفية المعقدة.

ومن ثم كان علي اذا أصبح وتأهب للخروج إلى عمله، ووصل إلى ناحية جامع عبد الناصر، ليعبر الطريق إلى الجهة الأخرى، ويستقل السرفيس، تصطدم عيناه تلقائياً بالحواجز الترابية على يمينه، التي تفصل ما بين شرق العاصمة وغربها، فيتنهد.

كما أنه كان يعرف عن طريق الهاتف فقط، أسماء زملاء له يعملون في فرع المؤسسة في شرق بيروت، ولم يلتق بهم مواجهة. صحيح أنه لم يكن ينتمي إلى أي جهة حزبية تمنع تنقله، لكن تلك النقلة كان يمنعها حاجز نفساني زجاجي لم يكن يستطيع اختراقه أبداً!

وأثناء سعيه في الحياة، كانت أمور صغيرة محبطة تزيد من ضيقه ومن ثورته على وضعه، وتبين له فشله الكامل في الوصول إلى نقطة رحمة، ومحطة أمل في بيروته المعذّبة، التي تستخدم تكنولوجيا القرن العشرين، وتعيش وتفكر بطريقة العصور الوسطى الأوروبية.

كان علي يتعجب من هدر ساعتين أو ثلاث

يومياً، لينقل مياهاً مع أخيه إلى بيتهم في الطابق الخامس. وكانت أصوات الموتورات نهاراً وليلاً تسبب له توتراً، لم تنجح المهدئات في ازالته. كما لاحظ أن أكوام الزبالة في الحي، وعلى مداخل الشوارع تسبب له بلادة حسية عجيبة، جعلت كل معاني الجمال تموت في روحه.

ومنذ أن علّمه أحد أصدقائه الصحافيين كيفية قراءة الخبر السياسي، أصبح لا يرى في الجرائد سوى دوائر مفرغة، يدور فيها أناس يتلاعبون بألفاظ، لا تمس جوهر أي حل على مستوى وحشية المأساة بوجوهها السياسية والأمنية والاجتماعية والاقتصادية، ولذلك أصيب بمرض أبناء برج الجوزاء، الذين يقرأون الكتاب من آخره، ثم يتصفحونه حتى يصلوا إلى أوله!!

كما لم يدر كيف أتت تلك الصورة العجيبة إلى ذهنه، عندما تخيل أنه يعيش في محارة صدف، تمتد من جسر البربير، وتنتهي عند كورنيش الروشة، محارة أوجدت له مساحة صغيرة، فرضت حاجات صغيرة، ومعالجات صغيرة لها، بدون أي أمل في طروحات كبيرة، أو أمل طموح.

وكان يضحك أسىً عندما يقرأ أسعار الشقق في الاعلانات المبوبة ويتذكر معاشه.

ـ عليّ أن أعمل وألاّ آكل أو ألبس ثياباً جديدة، لمد عشرين عاماً للحصول على شقة!!

أما الصمت الذي كان غارقاً فيه وهو بين أصدقائه، فكان بسبب مشاعره المتناقضة التي اجتاحته منذ أن اتخذ قراراً بالسفر إلى خارج وطنه، وعندما صارح أصدقاءه بنيته، انطلقت التعليقات:

ـ تسافر يا علي وتترك لبنان.

ـ اذا سافر كل شاب مثلك، كيف سيعيش الوطن؟

ـ يا جماعة. أنا أتمزق. والحكي بحر. من سيحل لي الأشياء المحبطة التي تواجهني في حياتي؟

ـ اصبر. فربما حمل الغد حلولاً لمشاكلنا.

ـ الادمان على الصبر نوع من المرض.

ـ أباؤنا صبروا.

ـ صبروا لأنهم صنعوا مستقبلهم، وذاقوا حلاوة لبنان، وعليهم تحمُل المرارة الآن. أما نحن فلماذا نصبر؟!

ـ اذاً قرار السفر لا عودة عنه.

ـ نعم. لماذا تكون حياتي كلها مرارة.

ـ ومتى تنوي العودة؟

ـ أعود عندما أسمع بوجود أفق حل بحجم آلام الانسان في وطني.

شارع فينيسيا

ـ هل أنا فعلاً أرى مطار بيروت يا ناجي؟

كانت هذه أول عبارة يقولها محمد عنّابي، وهو يمد يده مصافحاً ناجي عيد الذي كان يستقبله زائراً لبيروت بعد ١٨ سنة لم يزر فيها لبنان. وقد فاه بها وملامحه موزعة ما بين الابتسام لمستقبله، والدهشة التي انتابته منذ وصوله إلى المطار وحتى خروجه من باب المسافرين.

ـ حمد الله عَ السلامة أولاً. كيف كانت رحلتك؟

ـ عال والله يا ناجي.

ـ لا تنسَ أن المطار على حاله من سنة ١٩٧٥. لا جديد تقنياً أضيف اليه.

ـ تعجبت حتى من عدم وجود العربة التي نضع عليها الشنط في حالة جيدة.

ـ المهم.. حمد الله على السلامة.

ـ الله يسلمك يا حبّوب. «السيناتور» لم تزل معك؟

ـ بعتها واشتريت «مرسيدس».

ـ لماذا؟ لقد نصحتك بهذه السيارة منذ سنتين.

ـ انها ممتازة لكن الطرقات لا..

وقاطعه محمد بنظرة ضاحكة:

ـ والطرقات أيضاً؟!

تمتد صداقة الرجلين منذ أواخر الستينيات، عندما كان ناجي يعمل في دبي مترجماً في احدى المؤسسات وكان محمد عنابي يتاجر في الأقمشة بالجملة. أما سبب المعرفة فيعود إلى عمل ناجي في مؤسسته بعد الظهر أحياناً، لأن بعض المراسلات إلى الخارج كانت تحتاج إلى الألمانية التي لا يجيدها ناجي. ثم انتقلت المعرفة إلى مرحلة الصداقة بسبب سفرات محمد إلى بيروت، ومساعدة صديقه له ببعض المعلومات التي توفر عليه الجهد والوقت. وكانت الأمانة والصدق سببين لامتداد هذه الصداقة حتى

الآن، رغم أن الرجلين يعيشان في بلدين مختلفين، منذ أن ترك ناجي دبي في العام ١٩٧٣ وفتح مكتباً للترجمة في بيروت.

وفي الفترة ما بين سنة ١٩٧٣ وحتى بدء الصراع المسلح في لبنان، كان ناجي يستقبل محمداً في بيروت، ويصحبه في غدواته وروحاته لعقد الصفقات في العاصمة التي كانت عروس الترانزيت في البحر المتوسط. وأقنع محمد صديقه بالدخول معه في التجارة.

ـ انني أربح كثيراً من الترجمة.

ـ ولماذا لا تزيد ربحك، خصوصاً أن زوجتك في المكتب معك، وتقدر أن تديره في غيابك.

ـ معقول؟

ومنذ العام ١٩٧٥ لم يزر محمد لبنان أبداً، وان كان ناجي يتردد على دبي بسبب التجارة المشتركة بينهما، وتحول الخليج العربي إلى نقط ترانزيت شيئاً فشيئاً منذ بداية الثمانينيات.

ـ لماذا لا تزور لبنان يا محمد؟

ـ انني أخاف يا رجل.

ـ هناك خطوط تماس عليها القتال فقط، وليس كما تعتقد أنت أن كل شقة تطلق النار على الشقة المجاورة.

ـ انني أشاهد خطوط التماس هذه على التلفزيون.

ويرفع كفيه إلى مستوى كتفيه: وهذا يكفي رجل يخاف مثلي.

امتدت زيارة الضيف لبيروت بين عيدَيْ الميلاد ورأس السنة. ولعله قصد أن تكون أول زيارة له خلال الأعياد، حتى يشارك صديقه بهجتها. وهي ـ الزيارة ـ حسب ما شرح على الهاتف «لكي نرى ماذا يمكننا أن نفعل في بيروت بعد استتباب الأمن فيها».

وفي صباح أول يوم له من بعد الوصول، طلب من ناجي أن يأخذه إلى خطوط التماس التي طالما قال له عنها.

ـ لكن خذ في حسبانك أنه بعد ظهور العماد عون، كانت كل المناطق عرضة لأن تكون خطوط تماس وهدفاً لنيران المدافع.

ـ أين ستأخذني اذن؟

ـ خطوط التماس التقليدية.. الأسواق التجارية.

أصاب محمد عنابي الوجوم وهما يتجولان بين أبنية تشبه جماجم موتى ماتوا مشدوهين! وأخذ يتساءل ما اذا كان كل الدمار الحاصل بفعل القذائف فقط. وفسر ناجي أن قسماً مما يراه قد هدَّمه المقاتلون بالمتفجرات.

وتذكر الزائر أثناء تجوالهما منطقة شارع فينيسيا وذكرياته فيها، ولمعت عيناه فرحاً عندما عرف أن الدمار لم يلحقها، وطلب من صديقه أن يأخذه اليها.

ـ كيف ستتجه يا ناجي؟ هل تصدق أنني لا أعرف أين نتحرك.. ضاعت المعالم تماماً.

ـ وهل تريد زيارتها اليوم؟

ـ لبيروت نكهة عاطفية عندي لا أقدر أن أقاومها. دعنا ننهي القسم الأكبر منها اليوم.

وعندما وصلا إلى مشارف أوتيل «سان جورج» المطل على البحر، أخرج محمد رأسه من نافذة السيارة، وكأنه يريد التحقق من أمر ما.

ـ محل بيع السجاد والتحف ما زال هناك على الزاوية.

وأثناء تجوالهما في شارع فينيسيا أخذ محمد يبدي دهشته من التبدل السكاني الحاصل، واختفاء الأناقة من واجهات المحلات، وكثرة الأولاد الصغار الذين يلعبون في الشوارع ويقفون على النواصي.

ـ هل تتذكر يا ناجي العرافة التي كنت أزورها هنا؟

ـ تخطينا الخمسين يا رجل، ولم تزل تذكر هذا الكلام الفارغ.

ـ بشرفك يا ناجي أريد الذهاب اليها.

ـ هذه المنطقة يسكنها مسلمون الآن. ثم انني لم أذهب معك.

ـ دعنا نحاول.

وسارا من حارة إلى حارة ومن شارع إلى شارع ومحمد يعتذر لأن المعالم تغيرت فعلاً، ولؤلؤة بيروت ـ كما قال عن المنطقة ـ انطفأ بريقها. وبدأ ناجي يتململ وينصحه بالعودة، ومحمد لا يسمعه، وكأنه كان مصغياً إلى بوصلة داخلية توجه سمعه وبصره.. و.. فجأة وضع يده على رأسه الأصلع وارتجف عوده القصير وهتف:

يا الله يا ناجي.. العمارة هناك.

وعند دخولهما إلى البناية قال:

ـ أين الزهور والمرايات.. وما هذه الرائحة؟

ـ السكان الآن فقراء، وهذه الأشياء لا تعني شيئاً لهم، وأيضاً لا كهرباء مثلما تلاحظ.

وأخذا يصعدان الدرج المعتم ومحمد يرجح أنها ـ العرافة ـ في الطابق السادس أو السابع. وبهدوء تام فُتح أحد الأبواب بما يسمح لعين فقط أن ترى، وقالت امرأة ينبيء صوتها عن تتبعها لهما منذ فترة:

ـ إلى أين يا أستاذ؟

وقال محمد بلا مبالاة: صاعدين إلى الست وداد.

ـ انها ليست هنا.

وانفتح الباب أكثر وملأ الضوء العتبة، وخرج ولدان من وراء المرأة، سرعان ما لحق بهما أولاد آخرون من شقق مجاورة، وتحلقوا حول الرجلين.

ـ على أي حال سنسلم على زوجها.

ولم تشفع لهجته الخليجية في ازالة الريبة من قلب المرأة التي قالت بحسم أن زوجها توفي وهي ليست هناك.

ـ تركت الشقة؟! و. . أولادها.

وقال أحد الأولاد:

ـ يا عم. انها تأتي كل يوم جمعة.

وسحبت المرأة الولد الذي قال ذلك، وأدخلته إلى بيتها ووقفت أمامهما كوتد من حديد دق في صخر.

ـ لنرجع يا محمد.

وعندما خرجا من باب البناية قال محمد بضيق مراهق عاد فجأة إلى روحه:

ـ لماذا يا ناجي؟ ثم ما شأن هذه المرأة بنا. .

ـ الناس هنا يا محمد أصبحوا يرتابون في كل انسان غريب.

ـ وهل نحن. . ماذا تقولون عنهم؟

ـ زعران (بلطجية).

ـ هل نحن زعران. . هل نبدو كذلك؟

ـ بملابسنا هذه ونظارتك «الريبان» تلك، قد يعتقدون أننا استخبارات أجنبية.

ـ (فاتحاً فمه دهشة) مخابرات؟!

ـ سنعود مرة أخرى بدون هذه الملابس و«الريبان» هذه.

ـ لهذه الدرجة يا ناجي.

ـ الناس تغيرت. صدقني.. ليتني أنا الذي تكلمت مع المرأة.

ـ الولد الصغير ماذا قال؟

ـ هل يصعد أحد درجاً معتماً وهو يضع «ريبان»؟!

ـ الولد الصغير ماذا قال؟

ـ سنأتي يوم الجمعة.. لا تقلق.

وضحك محمد عنابي من قلبه وهو ينزع نظارته ويتناول منديل كلينكس من جيبه. وانتبه ناجي أنهما في يوم الجمعة وضحك طويلاً.

ـ هل تعرف يا ناجي أن الحرب عندكم توقفت لأن الناس ملّت فقط.

ـ فماذا بعد؟!

ـ سيعودون يوماً ما عندما يشتاقون!

اللحن الواحد

رأيت وسمعت فيما يرى ويسمع النائم سيمفونية عجيبة، يؤديها عازفون يعزفون ولا يسمع من عزفهم شيء. ألحانهم لا تغادر آلاتهم، والقاعة مملوءة بأوهام، والأوهام مكبلة بخيوط غموض.

سمفونية عجيبة يؤديها عازفون والمايسترو غير موجود. وكل عازف يؤدي ويتوقف، ثم يعود إلى العزف بطريقة توحي للرائي، أن العازفين يعرفون متى يتوقفون ومتى يعزفون.

عشرات السنين رجوعاً رأيتها في حلمي، والسمفونية العجيبة نفسها تُعزف. عازفون يموتون وعازفون يولدون، والأداء هو هو، واللحن لا يغادر الآلات، والقاعة مملوءة بالمرايات.

لا! لم تكن القاعة مملوءة بالمرايات. بل كانت

حواجز من زجاج، خلفها عازفون آخرون يؤدون الأداء نفسه. فرق موسيقية تبينتها وكنت أظن أن المرايات تعكس الفرقة التي أراها في القاعة التي أقف فيها. ومن الغريب أن المايستروات في القاعات الأخرى تجلس ولا تقف. ثم رأيت أحدهم يقف فقُذف خارج القاعة «الماسية». ووقف واحد آخر وأمسك بالعصا، فجاء اعصار وقذفه من فوق منصة المايسترو.

* * *

حركات الأيادي في القاعات المختلفة توحي أن اللحن واحد في جميع القاعات، لكن الريتم يختلف من قاعة إلى أخرى. وديكور قاعة «الخيام» وقاعة «البحر المملح» على وشك أن يتغيرا، حتى يتناسبان مع بقية الديكورات.

* * *

الرجال الذين لا رابع لهم ولن يكون، يكاد أن يفهم العازفون أنهم ـ الثلاثة ـ كانوا يعزفون لحناً واحداً، لكن بريتم مختلف. والآن جميع القاعات تنتظر توحيد الريتم حتى تتحرر الألحان من الآلات ويعود المايسترو الغائب إلى قاعته. فالألحان أسيرة

الآلات، حتى يتوحد الريتم بين كل القاعات وجميع الفرق.

* * *

أضواء تلمع وأخرى تخبو. والأضواء كان يتحكم فيها إلّه شرير نهأ عن عبادته الرجل الثاني من الذين لا رابع لهم. ولسوف يحركها ويتحكم فيها الاله الأب الذي نادى به الرجل الثاني نفسه. وسيادة الاله الشرير سببها عقم الرؤيا الانغلاقية لدى العازفين.

* * *

وسمعت فيما يسمع النائم قوماً يرددون أن المعزوفة تصل إلى رقم «واحد»، وبجواره ثلاثة أصفار، ولا تصل إلى الرقم (اثنان) وبجواره ثلاثة أصفار.

ورأيت فيما يرى النائم المعزوفة تصل إلى الرقم «اثنان»، لكنها تتحرر من الآلات، وتعزفها المعمورة القديمة بريتم واحد ـ بعد مرارة وحقد وسوء تفاهم ـ وبدايتها المحبة ونهايتها السلام، وتسمع بوضوح في أركان الكرة التي دحيت دحياً خفيفاً في أقصى شمالها وأقصى جنوبها.

اللحظة البلّورية

كانت تقف أمام المرآة وهي تضع زينتها، وتشرد بين لحظة وأخرى في أفكارها، في محاولة خلق حوار مزمع أن يكون بينها وبينه، داخل قلبها. وعندما أتمت زينتها، تركت مكانها أمام المرآة، وعادت مرة أخرى لتلقي نظرة خاطفة متأملة شعرها وثيابها، ثم تركت غرفتها، واتجهت نحو باب الشقة، وهي تتأكد من وجود مفاتيح سيارتها داخل حقيبتها.

في تلك اللحظات نفسها، كان هو ينظر إلى ساعته، وهو داخل الصف يعلّم في المدرسة، وينتظر انتهاء ساعة الدرس، ليوافيها في الموعد والمكان المتفق عليهما.

واذا عدنا إلى بداية تعارفهما وحكايتهما، لتعجبنا كثيراً، وارتسمت أمام أذهاننا علامات استفهام محيرة.

كانت هي تعمل في المدرسة نفسها التي يعلّم هو

فيها، وأمضت هناك عاماً دراسياً، كانا فيه زميلين يحترم كل منهما الآخر. ثم تركت هي المدرسة إلى عمل آخر يناسب تخصصها، وانقطعت بينهما الاتصالات.

وذات يوم طلبته على التلفون وقالت له بعد التحيات والمجاملات:

ـ مروان. في العمل عندنا يحتاجون إلى محاسب لفترة ما بعد الظهر، وقد فكرت في من أعرفهم، فلم أجد أقدر منك على الفوز بتلك الوظيفة!

ـ أمر مدهش أنْ تفكري فيّ لهذه الوظيفة.

ـ الكفاءة لا تنسى.

ـ أنا ممنونك، وسأكون عندكم في الموعد الذي تحدّدونه.

وبعد مقابلة مع مدير العمل، التحق مروان بتلك الوظيفة، لكنه ظل لمدة أيام يفكر في الصدفة التي جعلتها تتذكره، ثم اهتدى تفكيره إلى أن الكفاءة ـ كأستاذ في مادة المحاسبة ـ ربما لم تكن السبب الوحيد، بل ظروفه أيضاً.

فقد حدث أنها كانت تزور صديقة لها مهجّرة، في مدرسة أخليت لاسكان المهجرين، والتقت به في أحد الممرات. ولما سألته باستغراب عن سبب وجوده، أجابها بارتباك ظاهر:

ـ لأنني أقيم هنا مع والديّ وأختي.

وبعد ذلك اللقاء، تكشف لها سر غموضه في العمل، وعدم تداخله مع زملائه، واكتفاؤه بحدود الزمالة داخل المدرسة فقط. وأخذت تضحك في قلبها على التعليقات التي كان يقولها الزملاء عنه:

عميل... استخباراتي... مدعوم ومتكبر... معقد... الخ الخ. ورغم كونها من بنات حواء، إلا أنها لم تفش سره، حتى ولا إلى أقرب زميلاتها.

وعندما التحق بعمله الاضافي الجديد، سرّها أن تسمع ثناء المدير عليها، وقوله لها إنه قد «بيّض» وجهها. وأيضاً انطلقت التعليقات:

ـ لا بد أنها تحبه.

ـ طبعاً، وهذا سبب اختياره.

ـ لماذا لا يُظهران ذلك الحب.

ـ لأنهما خبيثان!!

مرت بضعة شهور على وجوده في العمل، وكانت تلاحظه يومياً في منتهى النشاط والهمة، وكأنه لا يعمل صباحاً في وظيفة التدريس المرهقة. ولما سألته عن سر ذلك أجابها بأنه يحب عمله، ولذلك لا يشعر بتعب، بالاضافة إلى أن معاشه الاضافي، يجعله يشعر بارتياح مادي أكثر.

كان أقصى ما يشعر به مروان تجاه نجوى هو الارتياح والثقة، وتقدير ذكائها اللمّاح وتعليقاتها الهادئة الساخرة أحياناً. لذلك شعر بدهشة، عندما بدأ شعوره نحوها يتغير إلى اعجاب، وعيناه تغيّران نظراتهما اليها، فتلاحظان تفاصيل جسمها وشعرها ولون عينيها. ولما امتلأت روحه يوماً، فاض قلبه ووجد الشجاعة لكي يقول لها:

ـ بصراحة، أحسُّ أن شعوري نحوِك يتغير!

ـ يتغير؟! يتغير باتجاه شو؟

ـ باتجاه الأفضل حتماً

ومن المؤكد أن احساسها الأنثوي قد التقط

المعنى المراد، لكن الشعور بالدهشة منه ومن كلماته ملأ نفسها. وبعد مرور أيام انتهز فرصة مناسبة وكرر لها كلامه عن شعوره الذي يتغير نحوها. أما هي فقد قالت له:

ـ يا مستر مروان! أنا اعتزلت هذه الأشياء

ـ اعتزلت؟ لماذا؟ هل أنتِ مارادونا؟!

ضحكت وقالت له:

ـ يا مستر مروان أنا اعتزلت.

ـ أريد موعداً لنتفاهم فيه خارج المكتب.

ـ وقتي محجوز.

ـ بانسان آخر؟

ـ قلت لك اعتزلت!

غادر مكتبها مبتسماً، وعاد بعد بضع دقائق، ومعه ورقة تركها بكل وقار على المكتب وانصرف. ولما نظرت إلى الورقة أخذت تضحك، فقد كان ملصقاً عليها قصاصة جريدة عليها صورة سعدان فوق رقبة صاحبه، وهما يسبحان هاربين من فيضان في بنغلاديش، وتحت الصورة الكلام التالي بخط يده:

حتى الحيوان يتعلق بالأمل!!

لكنه بدلاً من التعلق بالأمل الذي ذكره، بدأ يتعامل معها كزميلة مرة أخرى، لخشيته من أن يكون صدها له، بسبب أحواله المادية والاجتماعية المتعثرة. وكان طبيعياً أن تتعجب هي من اندفاعه المفاجيء، وتراجعه المباغت. ولأنها لم تكن تحس نحوه بأية عاطفة، اعتبرت أنها لم تربح شيئاً ولم تخسر أيضاً. وظلت على تعاملها معه.

ويوماً، سألها بكل لياقة وهدوء: هل كان رفضك بسبب أحوالي؟ وكم كانت دهشته حين أجابت: يا مستر مروان! السبب هو أنني قد ضُربت يوماً في ثقتي بالرجال.

فهم مروان أن «مستر» هي حاجز نفساني وضعته هي لذلك السبب الداخلي، ومن ثم قرر أن يكسب ثقتها أولاً، ومن يدري ما يكون بعد ذلك.

وفي خلال مشواره لما نواه، عانى الكثير من لا مبالاتها المتعمدة معه. كانت هي تعرف أنه يريد قلبها وليس ثقتها. لكن تكرار محاولاته اللطيفة، جعلها في حالة اغراء لمبارزته عاطفياً، ووجدت نفسها يوماً تقول

له، وبعد معاناة داخلية هائلة ـ أريد أن ألقاك بعيداً من هنا.

وكان لقاء تلاه لقاءات أخرى، تحدث هو فيها عن كل شيء ما عدا الحب. كان هو يتحدث وهي تسمع. وما لفت انتباهها كثيراً هو أنه لم يحاول حتى أن يلمس يدها. كما اكتشفت من خلال أحاديثه أنه مصاب بالاحباط كأي صاحب معاش شهري.. متواضع رغم أنفه... غني بالأمل كأي شاب.. فقير في السلطة كأي كفوء.. مهزوم كأي مثقف.. متقوقع على نفسه كأي مهجّر.

وكم كان سرورها حين قرأت كلاماً رقيقاً منه على بطاقة في «عيد الحب» وازداد سرورها حين توالت خطابات رقيقة منه، يلمّح فيها ولا يصرح بحبه لها. ويبدو أن كلامه الطيب ترك أثراً جيداً عندها، لأنها وجدت نفسها مشغولة به في أوقات بعدها عنه.

ورغم أنها كانت تقابله في العمل بعد كل لقاء بينهما بوجه متجهم، إلا أنه لم يتعجب، انما كان يردد قولها المأثور: مستر مروان! لقد ضربت في ثقتي بالرجال، ويضيف: ويلزمها وقت لاستعادتها.

بذل مروان جهداً كبيراً ليجعلها تستعيد ثقتها المفقودة. بذله حناناً واهتماماً وحباً مخلصاً. وتبين لها مع مرور الأيام أنه لا يتبطر عندما ينال ما يناله عادة المحبون. كما كان دائماً يكتب لها، وكأنه يواصل لقاءه بها بعد أن يفترقا.

ولما طال انتظاره لسماع كلمة حب منها، أو تلقي رسالة ترد فيها على احدى رسائله، أحس كأنه ينبوع ينضب من عدم تجاوبها بكلمة حنان اليه، وقال لها: لقد تحولت أنا إلى رسالة حب، فحاولي قراءتها جيداً.

مرت شهور على علاقتهما تخللتها أحداث عصيبة عصفت بلبنان. أحداث سببت احباطاً للجميع، وأثرت على سلوك الناس ونفوسهم. لكنه رغم ذلك حافظ معها على البسمة والكلمة الحلوة. ومن الغريب، أنها لم تتغير، ولم تحد عن أسلوبها معه: هو «الحكواتي» دائماً وهي المستمع. واذا حاولت هي خلق فرصة للكلام تسأله: شو الأخبار؟

ـ أخباري أو أخبار البلد؟!

ويوماً بعد يوم بدأ مروان يصل إلى النقطة

البلّورية، التي جعلته يتشبع ويصل إلى حالة جمود معها. جمود لم يعد معه قادراً على المواصلة معها، أو طلب أي موعد منها.

وكان دائماً يتساءل عن سبب جمودها، وهل يعود إلى أوضاعه الاجتماعية المتعثرة، ومن ثم عدم مراهنتها عليه، أو تشجيعه بتواصل وحرارة لكي يغير حياته وتنتهي قصتهما نهاية سعيدة. وعبّر لها يوماً عن تلك المعاني بقوله: يجب ألا تنشغلي بي تماماً، لكي تنتبهي إلى أي انسان يحاول التقرب منك مخلصاً!!

وأحياناً كان يقول: اذا كانت تعيش أيامها معي من أجل العاطفة فقط، فلماذا جمودها، ولماذا لا تهتم بالأشياء الصغيرة التي تنعش الحب وتجدد المشاعر؟

لاحظت هي فترة جموده التي طالت به، وصمته الذي لم تتعوّده، وفكرت في كل شيء، وطلبت منه في العمل أن يلقاها بعيداً.

وكان هو يذهب إلى الموعد، ورأسه خال من أية فكرة أو معنى. أما هي فقد كانت ذاهبة وعارفة ماذا ستقول.

لم أكن جديراً بها

كان باسم رزق الله وحيداً بين ثلاث اخوات بنات. وأيضاً كان بلا عائلة كبيرة فيها العم والخال. لذلك نشأ باسم على مثاليات المدرسة العريقة التي ترعرع فيها، وعلى خلقيات البيت اللبناني المتمثل في أبيه وأمه.

وقد أدت دراسته في كلية الآداب، قسم الفلسفة، إلى ترسيخ جدار نفساني شاهق، بينه وبين أصول لعبة الحياة العملية. كما كانت نظرته إلى المرأة مثالية، تدرجت من السيدة العذراء التي سمع بها صغيراً في المدرسة، إلى امه السيدة الفاضلة، إلى أخواته البنات اللواتي كنَّ نسخة طبق الأصل عن الأم.

فكان طبيعياً ان يتلمس في الكتب والقصص نافذة على الحياة، لكي يعبر من دُنياه الضيقة تلك.. في ذلك الجو المثالي المملوء بالكرامة والشرف، نشأ

باسم رزق الله، ومنه خرج إلى الحياة العملية، مدرساً باحدى المدارس العريقة.

وما بقي ان نقوله هو إنّ الحرب التي نشبت في الجسد اللبناني عام ١٩٧٥، قد سبقت عيد ميلاده السابع عشر بأيام فقط.

وحدث ان توفي ابوه بعد ان بدأ حياته العملية، وتلقائياً تحولت مسؤولية تلك الأسرة الصغيرة إلى عاتقه. ولما كانت أعباء أسرته ـ المتوسطة الحال ـ المادية، لا يكفيها معاش رزق الله، دبر له اولاد الحلال عملاً آخر مع عمله. ومن ثم عاش رزق الله بين المثاليات والسعي المتواصل، لكي يعول اسرته.

وفي ذلك السعي عانى الكثير الكثير في حياته. عانى لأنه كان رجلاً مثالياً يخدم المبادىء فقط، ولا يخدم الاشخاص. فكان طبيعياً ان يرى فرص التقدم في العمل، تطير من امامه، وتحط على غصون زملاء له اقل منه كفاءة ومقدرة.

وهو يرى ذلك ويستوعبه على مضض. ويتألم في قلبه. لكن جدار مثالياته النفساني كان يقف سداً منيعاً، بينه وبين «الحربقة» و«ضرب المباخر» و«السير

في المواكب»، التي صارت موضة لكل مجموعة حول أي «باباز» أو مليونير، بينما كانت مقتصرة على القريب من رؤساء الدولة فقط في أيام العز.

ومن المؤكد ان جمال اخواته البنات، وسيرتهن الحسنة، هي التي عجلت بزواجهن الواحدة تلو الأخرى. وكان رزق الله البقرة الحلوب التي تدر الماديات لزواج تلك الأخوات.

ولعل الطمع وحب الاستئثار فى المرأة، هي التي جعلت أمه واخواته البنات، لا يعرضن له مطلقاً بأن عليه ان يبحث عن زوجة صالحة، لكي يملأ دائرة حياته المفرغة، من أي معنى وقيمة شخصية له.

وقد استمرت وتيرة حياته الجافة، الموزعة بين العمل والنوم مرهقاً، حتى بعد زواج البنات. وما هي إلا شهور حتى بدأ باسم يغير بدون انتباه موديل ملابسه، ويهتم بحلاقة ذقنه يومياً، ويحس فراغاً وضيقاً عظيمين بملآن حياته.

اصبح يضيق ذرعاً بعمله، وبذلك البيت الذي لا يعرف محطة غيره بعد العمل. كما أحس أنه عاش مغبوناً. وأخذت احاسيس المراهقة الغامضة، تنتاب

ابن الثلاثين.

في البيت أخذ يتمرد على أكل أمه، ويدخن السجائر أحياناً، رغم أنه لم يكن يطيق رائحتها. وبدأ يلتمس المرأة بعد انقطاع مثالي عنها. أما بين زملائه في العمل، فقد أصابته لوثة «التفشيط» المعربدة في المجتمع اللبناني، بعد ان كانت كلماته توزن بأحسن الموازين عند الناس.

فمثلاً.. اصبحت كل قذيفة، او سيارة مفخخة، تنزل او تنفجر على مرمى حجر منه، بعدما كان يهزأ من تلك العادة السادية غير المعقولة، التي اصابت اللبنانيين، نتيجة لهوان حرب عبثية طويلة، بدون نهاية واضحة فوق ارضهم. اصبح من طينتهم اليوم.

ولما اعاد النظر في مراوحته مكانه في عمله، توصل بدون اي جهد إلى السبب، فبدأ يردد بينه وبين نفسه:

«لا عائلة ذات اسم رنّان لي، ولا اموال توجب الاحترام، فمن اين استمد القوة، اذا لم اكن من حملة المباخر، و «مدبري احوالهم» و «السائرين في المواكب».

تعمد تلك العمادة اللاانسانية المتفشية في

المجتمع، فأمسى الجميع يعملون الف حساب لحربقته، وباطنيته التي خرجت من شرنقة الصراحة، التي آلمته كثيراً. لكن ذلك لم يمنعه ان يتأثر ـ في جملة المتأثرين ـ بكلام الكاهن نهار الأحد، خصوصاً عندما يقول: كونوا كاملين كما اباكم الذي في السموات هو كامل.

ويضحك مع الضاحكين في العمل، عندما يقولون بكل استهتار، ان المراكب تنتظرهم في نهاية المطاف.

فلماذا يخاف من الماء، طالما في البحر حوت، وهو في جملة المؤمنين الذين سيركبون المراكب؟

هكذا عاش باسم رزق الله سنوات من عمره، إلى ان فاجأته قذيفةتنزل بالقرب منه، في حرب الشرقية الاخيرة، فلم يحس بعد تفريغ الهواء الصاعق الذي احتواه، سوى انه يتدحرج في نفق اسود طويل، مملوء بضوضاء خافتة، وينتهي إلى نقطة نور، سرعان ما تحتويه، فيرى جسده ملقى على الأرض، وهو واقف كأنه لا يمت بأية صلة مادية لذلك العالم.

واذا بكائن نوراني يأخذه بعيداً عن ذلك المسرح، ويسير به مبتسماً في وجهه، ثم سائلاً اياه بعد فترة:

ـ باسم رزق الله.. هل كنت جديراً بنعمة الحياة التي اخذتها مجاناً؟

ـ كلا.

ويعود الكائن ويسأله:

ـ لماذا؟

ـ لأنني لم ارتق فيها، ولم أحاول.

المدينة العاقر

رأيت فيما يرى النائم جسمي وقد تحول إلى تابوت، وانني اسير في مدينة اجساد اهلها تحولت إلى توابيت. مدينة ارضها رمال متحركة، وهواؤها خداع، وآلهتها آلهة من ورق.

مدينة تنام فيها ليلاً وكلبك يقف ببابك حارساً، واذا به يتحول صباحاً إلى ثعلب. والعلاقة بين التوابيت في تلك المدينة هي علاقة عذاب. فكل تابوت يعذِّب التابوت الآخر، ولا ينجو احد التوابيت من العذاب، لأن المدينة نفسها معذّبة.

انزعجت في حلمي كثيراً من التحول الذي اصاب جسمي واصاب الناس، فذهبت إلى صديق شاعر، علّ شعره يشفيني مما اصابني. ولدهشتي وجدت ناي صديقي قد تحول إلى خشبة. وعرفت انه لم يعد يقول شعراً.

ـ أأقول شعراً في بحر تحول إلى شمع سائل.

أو سماء هجرها اللون الأزرق والعصافير أو انسان تحول إلى تابوت..

ذهبت يأساً إلى عرّاف عله يحل تلك المعضلة لي. فروعني استقبال العرّاف لي:

ـ اذن أنت من المدينة العاقر!

ـ عاقر؟! لماذا؟

ـ لأنها لم تسمع إلى كلام ابنائها المخلصين. صدقني لو أنني نقعت واحداً على مليون مما كُتب باخلاص لها في الماء، وشربته امرأة عاقر لحبلت!!

ـ يتكلم المخلصون كل على طريقته

ـ لأن الحرية كانت للغرباء ولم تكن للأبناء

ـ ماذا خلف كلامك؟

ـ تزلم الأبناء لمن كانت الحرية لهم، ومن ثمة فقد معظمهم الولاء لمدينته.

ـ جئتك طالباً دواء ولم أطلب نصيحة.

ـ الدواء هو الولاء والصدق والحب. وحتى

يستخدمون الدواء، محكوم عليهم أن تظل اجسادهم توابيت، وعيونهم احداهما حجراً والأخرى لا ترى سوى اللون الأسود.

وفيما أنا عائد مفكر في محنتي ومحنة الناس، طوقني بضع رجال ملثمين وقبضوا عليّ. وعرفت فيما بعد أنه قد قُبض عليّ لأنني قتلت الغول والعنقاء والحبيب الوفي. هكذا قيل لي في المحكمة بعدما اقسمت لهم أنني لم أسلك يميناً ولا يساراً، ولم ارتد قميصاً أحمرَ أو أخضرَ.

ويبدو أن الحكم بحبسي مدى الحياة قد اصاببني بغم عظيم، جعلني انام في زنزانتي كمداً وغيظاً. فرأيت في حلمي قاعة فسيحة يجلس فيها شيخٌ مهيبٌ، يتحدث إلى جمهور المستمعين عن الجنة. والنار، ووصف ثواب المؤمنين وعقاب الأشرار. وكان المستمعون يبكون تأثراً من كلام الشيخ المهيب، الذي عرفت أنه الحسن البصري.

وبعد الحديث تلفت الحسن البصري حوله، ليأخذ مصحفه الشريف ويمشي فلم يجد المصحف الشريف الذي كان بجواره.

ـ أيـهـا الـنـاس كـلـكـم يـبـكـي، فـمـن سـرق المصحف؟!

رددت أنا: كلهم يبكي فمن سرق المصحف؟ واذا بي أغوص في لحظة تأمل، وافيق من حلمي، لأدون ما رأيته في الحلمين.

---

* لأن سوء النية من سمات البشر. أود أن أوضح أنني اكن كل محبة واحترام عميقين للنبي محمد والمصحف الشريف. وحكاية الحسن البصري صحيحة ويعرفها القليل من الناس. وقد رواها الشيخ حسن الباقوري في تلفزيون القاهرة ذات مرة. وأنا استخدمها لدلالة واضحة في الحلم، لمن يقرأ ما بين السطور.

الطريق القصيرة

خفق قلبه بذكريات موجعة عندما رآها في حفل خيري، وهي تقدم رئيسة الجمعية المنظمة إلى الحضور. تغيرت كثيراً عما كانت عليه منذ عشرين عاماً، لكن مسحة الجمال الواضحة على وجهها، كانت تنبىء عن جمال راقٍ لما كانت أصغر عمراً، كذلك أضافت السنوات وزناً إلى جسدها النحيل، لما كانا متحابين.

تابعها بعينيه بعد نزولها من المنصة، ورآها تتجه إلى احدى الطاولات المتقدمة في القاعة. ولاحظ أن الجلوس خمسة، رجلان وثلاث نساء.

سنوات كانت بمثابة عمر ثانٍ بين ذلك اللقاء المفاجىء، وبين آخر لقاء حزين جمعهما، وقررا فيه الابتعاد عن بعضهما. ومن يومها لم يعد أحدهما يرى الآخر، أو يتابع أخباره ولو بحشرية اثنين جمعهما

حب كبير. وقد تردد كثيراً ما بين اختلاق فرصة لمحادثتها، والجلوس بجوار زوجته حتى نهاية الحفل، ثم العودة إلى المنزل، وكأنه لم يرها.

لكن الذكريات ـ وان كانت موجعة ـ والحنين جعلاه يتحين فرصة لكي يقترب منها، وانتبهت هي فجأة إلى وجود عينين تحدقان فيها عن قرب. ولما وقعت عيناها في عينيه، وجمت كمن يدقق في خيال أمامه، ثم ابتسمت عندما تحققت من وجود ما تراه، واقتربت منه وهي تهمس:

ـ طوني!

ـ أهلاً نجاة... ما توقعت رؤيتك هكذا!

ـ هذه قصة طويلة. أنت كيف أحوالك، وماذا فعلت الدنيا بك؟

ـ حياتي جيدة، تزوجت وعندي ولدان.

ـ برافو!

ـ ألاحظ أنك وحيدة. أين زوجك؟

ـ لم أتزوج. بالمناسبة، أين هي زوجتك؟

ـ المرأة الطويلة الحنطية الواقفة هناك.

ـ تخيلتها شقراء!

ـ مثلك؟

ـ يعني!

ـ نجاة. ذكرياتنا والحنين تجعلني أطلب منك موعداً نتحادث فيه، ويعرف كل منا أخبار الآخر.

ـ (متنهدة): أعطني رقم تلفونك، وغداً نتفق.

ومن المؤكد أنه في تلك الليلة غرق في شريط الذكريات التي بدأ في العام ١٩٧٣، عندما التحق هو بالعمل في مكتب هندسي وكانت هي سكرتيرة ذلك المكتب. كان مهندساً شاباً يملأ الطموح قلبه، وكانت هي فتاة جميلة. شقراء ذات عينين خضراوين. طويلة.. نحيلة.. متفائلة دائماً، ومنفتحة بشكل واضح على الحياة والناس. ولاحظ من خلال عشرة الجميع في المكتب، أنها ترد الطامعين بلياقة، ويقوم تعاملها مع الناس على التعاون والاحترام. فمال اليها قلبه، ووجد نفسه يجتهد لكسب ودها، بالرغم من فارق التعليم والعمر بينهما. اذ كانت هي تكبره بثلاث سنوات.

وفي أول لقاء جمعهما قالت له:

ـ كل الناس لها مكان في قلبي!

ـ أقلب هو أو شاشة تلفزيون؟!

ـ أعطني وقتاً لأفكر وأختبر أحاسيسي.

وأعطاها الوقت والاهتمام والحب، لكنه لاحظ أن احساسها لم يتعد الصداقة العميقة إلى الحب. كانت تجفل اذا لمس يدها. وسألها ذات يوم:

ـ صراحة، هل هناك شخص في حياتك؟

ـ أبداً.

ـ لماذا لا تستطيعين أن تبادليني ما أشعر به؟

ـ لم أقدر أن أصدمك من البداية! حاولت التجاوب، وهذا أقصى ما استطعت الوصول اليه.

ـ تصدمينني!! لماذا؟

ـ طوني ـ أفكر بأن أكون راهبة!

نظر في عينيها ورفع حاجبيه وقال بصوت قد بح:

ـ راهبة؟!

ـ نعم!

ـ عمرك ثلاثين عاماً ولم تقرري بعد!!

ـ لكل انسان ظروفه. ثم انني أختبر الحياة قبل قراري النهائي.

ـ وهل تعتبرينني عائقاً بينك وبين قرارك؟

ـ مطلقاً! خضت هذه التجربة، لكنني وجدت نفسي تتجه رغماً عني إلى حب أكبر منك ومن الحياة نفسها.

ـ أظن أن عمرك وجمالك وعدم حسم اتجاهك حتى الآن، قنبلة موقوتة تنفجر في من يقترب منها. وقد تنفجر بدون لمس!

كان يعذبه فيها أنها فتاة في خدمة الجميع، والآن فهم أسباب تفانيها في خدمة الناس. وكان يعتقد أن مواظبتها على حضور قداس الأحد تدّين، وتبين له أنه ـ وغيره من نشاطات ـ اقتراب من هدفها الذي تصبو اليه. لكن الشيء الذي ظل يحيره كان اهتمامها بأناقتها، التي لم تكن بأي حال تعبر عن مظاهر زهد الطريق الذي تريد السير فيه. كما أنها كانت تردد كلاما عن الرهبنة، يشبه كلاماً سمعه هو من قبل، ولا

يعبر بحال عن تجربة جوانية ذاتية لها. وعندما طلب منها الذهاب إلى بيتها، ليتعرف إلى عائلتها واليها أكثر، سمحت له، ورجته ألا يذهب عريساً يطلب يدها. يذهب كزميل معها في العمل فقط.

ولما ذهب، وتكررت زياراته، عرف أن أبويها متدينان، ولاحظ صحتهما الجيدة، رغم كونهما كبيرين في العمر. ورجح أن تربيتها وحيدة في ذلك البيت الطيب، العابق بالايمان والمحبة، هي ما جعلتها تفكر في الترهبن. كما انتبه إلى حنو أمها عليه، وتشجيع نواياه التي لم يفصح عنها، وكأنها غير مقتنعة بحياة ابنتها التي تقف في وسط الطريق، ولا تستطيع الاختيار.

مر عام على تعارفهما ومحبته لها تزداد، وتعلقه بها يتجذر في قلبه.

أما هي فقد كانت تتأرجح بشدة كبيرة بين قرارين، لم تستطع اتخاذ أحدهما. وقد انفجرت تلك الصراعات حديثاً صريحاً بينهما:

ـ ألا تستطيعين الحياة معي وفي قلبك الله، أما زلت لا تقدرين على اتخاذ قرار بالترهبن؟

ـ أما أنت أو الترهبن.

ـ ولماذا لا تختارين؟!

ـ شيء ما لا أستطيع تسميته يمنعني.

ـ هل تعتبرين أن العلاقة بين الرجل والمرأة عمل قبيح؟

ـ بالعكس! وأنت ترى انفتاحي على كل الناس.

ـ قصدت العلاقة الحميمة.

ـ (بعد تأمل وتفكير) لا أظن.

ـ ألم تقدري يوماً أن الله قد أرسلني في طريقك، لأنه يريد لك طريقاً آخر؟

ـ ربما.. وهذا ما أحاول معرفته.

ـ وهل تعطين هذه المحاولة وقتها، أو تتهربين منها؟!

ـ أحاول.

ـ أظن أن لديك مشكلة أساسية..

ـ ببساطة ووضوح: عندما كان العالم يتحرك من حولي، كنت أتحرك بانسجام.

ـ ولمّا ظهرت أنا؟

ـ بدأ العالم من حولي في الثبات، ولذلك ضاع الانسجام مني.. ضاع الايقاع.. ولم أعد أستطيع الاختيار.

ـ لأنك من الأساس تتهربين من الاختيار.. تتحركين كبندول ساعة لا عقارب فيها. وهنا المشكلة والضعف.

ـ كانت قوتي في ما تسميه أنت ضعفاً!

ـ ومضيعة للوقت.

ـ ما فعلته في حياتي لا يمكن أن يكون مضيعة للوقت كما تزعم.

ـ تفرض الظروف على الناس أحياناً أن يعيشوا عيشة الأبطال. لكن كيمياء دم بعضهم، تدفعهم إلى اختيار موت الأبطال.

ـ استشهاد من فضلك!

ـ لا يهم. المهم هو حتمية الخروج من التأرجح.

ـ أمر صعب. يبدو أن التأرجح هو الوسيلة التي أستطيع أن أؤدي فيها وظيفتي في الحياة!

ـ (بعد فترة صمت) يبدو أن وجودي في حياتك

أضاع أشياء كثيرة. سأبتعد. وأمامك شهر لتختاري، وأنت تعرفين تلفوني.

ـ ستترك المكتب؟

ـ أفضل. فأنا لا أستطيع أن أكون خصماً لله!

ـ ذهبت بعيداً.

ـ هذا احساسي الخاص.

ـ اتفقنا. وأظن هكذا أقدر على الرؤية بوضوح.

مر الشهر عليه وهو يعيش في ترقب، وتقتحمه الهواجس مع كل مخابرة في منزلهم، حتى كاد أن يصاب بما أسماه «عقدة التلفون». ولما انقضت المدة المتفق عليها بينهما، بدأت مرارة فشل الحب تترسب في قلبه، وبدأ يعيش أحاسيس سوداء، كادت تمس ايمانه بنفسه.

لذلك، قرر أن يتناساها، لأن التفكير بها كان يزعجه كثيراً، ويجعل رؤيته للحياة بائسة ومحيرة. كما أنه كان يواجه عملاً جديداً، ودائرة جديدة من الناس. وكان يحمس نفسه صباح كل يوم:

ـ يوم جديد وذاكرة جديدة!

وأنجبت له الأيام الحبلى بالمتغيرات فتاة أحبته بصدق. وشفاه حبها وتعليقاتها الضاحكة على المواقف الصعبة من مرارة فشله القديم. وذات يوم سألته:

ـ علاقتنا للاستمتاع بالوقت أم ستنتهي إلى شيء ما؟

وفي هذا «الشيء ما» عاش حياته ناجحاً وأباً لطفلين يملآن حياته بصخبهما ودروسهما ومرضهما وعاطفة الأبوة. وبالرغم من ذلك كان يتذكرها أحياناً، ويتساءل بينه وبين نفسه:

ـ ترى في أي دير هي الآن؟

ومن الغريب أنه ذهب إلى لقائه بها وهو مضطرب، تماماً كما كان ذاهباً في أول لقاء من سنوات وسنوات مضت.

ونزلت هي من سيارتها بكامل أناقتها، ورائحة عطرها تسبقها بخطوات، وصافحته بحرارة.

ـ هل تحب أن نتمشى على طريق المعاملتين كما كنا نفعل؟

ـ نعم. وإلا ما كنت طلبت لقياك هنا!

وقالت له بعد فترة صمت لم تتوقعها منه:

ـ بعد ظهر رائع.

ـ ساحل البحر أحلى شتاءً من الصيف اذا كان الطقس دافئاً كما هو اليوم.

ـ مبسوط في حياتك؟

ـ أكذب اذا قلت لا. وأنت؟

ـ وصلت إلى حالة اقتناع. لا أنا مبسوطة ولا حزينة.

ـ ماذا حدث لك طوال هذه السنين؟

ـ دخلت الدير بعد شهور من آخر لقاء بيننا. وتركته بعد شهور قليلة.

ـ ولماذا؟

ـ المشكلة كانت حريتي. عرفت أنني سأكون مرتاحة في الخارج.

ـ ولماذا لم تتصلي بي؟

ـ قدّرت أنك سرت في طريقك. وعرفت أنا طريقي. وما لدي من طاقات أنفقها في مساعدة الناس. إنني أعمل في جمعية خيرية كما لاحظت.

ـ ومن ساعدك؟

ـ رئيسة الدير. ليتني قابلتها من زمان. كانت تغيرت حياتي. أحياناً يساعدنا أهل الدين، أكثر من أهل الدنيا.

ـ لعلهم أكثر صفاءً وتأملاً للحياة منا.

ـ ربما.

ـ هل تشعرين بندم؟

ـ ومن منا لا يشعر به تجاه أمر ما، أو لا يعاني صراعاً.

ـ ألم يدخل رجل في حياتك؟

ـ (ضاحكة بدون صوت) اثنان في وقتين متقاربين. أحدهما قريب لنا. غني وارث عن أهله أموالاً طائلة. والآخر صاحب سلطة ونفوذ.

ـ وكيف انتهت علاقتهما بك؟

ـ في البداية رفضتهما. لكن الحاح أمي، جعلني أفكر وأقارن وأطيل التأمل، حتى ظنا فيَّ الظنون، وبدآ يحاولان استغلالي فهربت.

ـ ووالداك..

ـ أبي توفي. وأمي أصبحت مسنة وتخرف أحياناً.

غريب أن ينتهي أمر أجمل فتاة في لبنان هكذا. ألا تخافين الشيخوخة وأنت وحيدة،

ـ بصراحة نعم. لكن ما هي فرصتي في الخمسين؟ أرمل أو مطلق.

ـ وزادت وهي تضحك وتنظر في عينيه:

ـ وأنا طموحي أكبر من ذلك.

ـ أظن أنك كنت تطلبين شيئاً في كل ما فعلته.

فقالت بعد تأمل وهي تلاحظ طائر نورس فوق مياه البحر:

ـ كنت أريد أن أكون انسانة. كنت.. هل تفهمني؟

ـ وهل الوصول إلى الانسانية، يستلزم كل هذه الفداحة في الخسائر؟

ـ عندما تكون الطرق خاطئة.. نعم.

ـ وهل كل طرقك كانت خاطئة؟!

ـ كان مشواري قصيراً. لم أمش في أي طريق حتى نهايته.

ـ هل نستطيع أن نكون أصدقاء؟

ـ مست شعرها بيدها اليسرى وقالت:

ـ تعودت الوحدة. أصبحت أخاطب الرجال من دائرة، ولا أسمح لهم بدخولها.

ـ اذا هذه آخر مرة نلتقي فيها؟

ـ لنعد إلى سيارتي.

رجعا صامتين، يسبح كل منهما في أفكاره، ويقطع أحدهما ذلك الصمت بملاحظة عن البحر، أو الأشجار التي تمتد صعوداً حتى تمثال العذراء (حريصا). كما تحدث هو عن عمله.

ولما وصلا إلى سيارتها، أمسك يدها بيديه وقال وهو يحتويها بنظره:

نجاة. انتبهي على نفسك.

ـ وأنت أيضاً.

وانطلقت بسيارتها، وتابعها ببصره وهي تبتعد على طريق المعاملتين، إلى أن أصبحت نقطة حمراء تتجه يساراً من ساحة جونيه، ومسح دمعة على خده، وعاد إلى سيارته، بعدما لفحه هواء شاحنة للجيش مرت بجواره.

فليدفن بسلام

كان الكاهن سمعان أبو ضاهر يقيم قداسه الصباحي في الضيعة كالمعتاد، ووجوه الختيارية نفسها هي الحاضرة معه في كنيسته الصغيرة، وكانت العيون والآذان قد لاحظت أن الكاهن كان في قمة الانشراح وصفاء الصوت في ذلك الصباح

أتم الكاهن قراءة مقطع الانجيل الخاص لذلك اليوم، ثم انتقل إلى الجزء الذي يليه من القداس الإلّهي، وكان أحد الختيارية يساعده منشداً التراتيل المصاحبة للقداس. وفجأة توقت الكاهن عند أحد المقاطع، وبدا للحضور أن بشرته قد بدأ لونها يميل إلى الزرقة، وابتعد الكاهن، بالكاد خطوة إلى الخلف بعيداً عن المذبح، ثم وقع على الأرض. وأسرع من كانوا موجودين باتجاهه، بينما ركضت إحدة النسوة باتجاه الباب الخارجي، ونادت على صاحب محل

السمانة القريب:

ـ يا أبا جورج. عمول معروف.. خلّي حدا يعيّط للدكتور ناجي، بسرعة قبل ما يروح عالمستشفى.

ـ وين يا إم ماري.. شو صار؟

ـ هون بالكنسية، بونا سمعان وقع عالأرض.

ـ اسم الصليب العظيم. صارلو شي.

ـ ما بعرف.. عمّول معروف.. عجِّل.. الدكتور ناجي بسرعة.

وصل الدكتور ناجي بعد دقائق معدودات، ولم يطفئ محرك سيارته، عندما هرول منها إلى الكنيسة، ليربح أي ثانية قد تبعد الكاهن عن الخطر. لكنه ما أن اتكأ بجواره على الأرض، وأمسك بمعصمه ورأى الزرقة الداكنة التي أحاطت بوجهه ورقبته، خصوصاً لجهة اليسار، حتى قال:

ـ العوض بسلامتكن، بونا سمعان مات.

ـ كيف مات؟! الزلمة كان من دقيقة عمبيقدس.

ـ معقول يموت بهالمكان

ـ الموت ما بدّوا واسطة والزلمة مات هون لأنو قديس.

أرسل أهل الضيعة وفداً منهم، لتعذر الاتصال التلفوني، الى مطران الأبرشية لإبلاغه بما حدث. وأشار عليهم نائبه، لوجود المطران خارج البلاد، بوضع الكاهن في الكنيسة بعد تحضيره للدفن، ريثما تجهّز المطرانية الأوراق اللازمة وترسل تابوتاً لائقاً، وأنه هو شخصياً سيكون عند الرابعة لإجراء مراسم الدفن، تخوفاً من أي انتكاسة أمنية بعد الظهر تمنع وصول المشيعين والجثمان من الوصول إلى المطرانية، أو العودة إلى الضيعة بعد انتهاء الصلاة.

كان أهل الضيعة يعتبرون الخوري سمعان أكثر من كاهن بالنسبة لهم. هو المعلّم والصديق والكاهن. المعلّم الذي علّم أولادهم في المدرسة التابعة للمطرانية اللغة العربية وقواعدها قبل أن يحال الى التقاعد، والصديق الذي يدق أي إنسان على بابه وقتما يشاء، فيجده بشوشاً ذا قدرة غير محدودة على الاستماع وتقديم النصيحة والخدمات. وهو الكاهن الذي يذكر الكل أنه رافق وحضر جميع مناسبات أبناء الضيعة منذ سيامته كاهناً، ولمدة أربعين سنة ونيف،

خصوصاً تلك الذكريات المتعلقة بالدفن، بعد أن قامت الحروب في البلاد، وأصبحت ضيعته خط تماس.

كانت ضيعة الكاهن ذات وضع فريد أثناء الحروب التي حدثت في لبنان، خصوصاً بعدما تم الفرز الطائفي بين الدروز والموارنة، فقد كانت تبعد ٢٥٠ متراً كخط تماس مباشر مع ضيعة درزية تعلوها ارتفاعاً. وكان أهل الضيعتين يسيرون ليلاً بسياراتهم بدون أضواء خوفاً من القنّاصة على الجهتين. وكانت البيوت المتقدمة فيهما شبه خالية من سكانها. وكان أهل الضيعة المسيحية يحتارون ـ في البداية ـ في دفن موتاهم لأن المدافن تقع في مكان متقدم ومكشوف تماماً.

ثم اهتدى الخوري سمعان إلى فكرة لاقت قبولاً ـ ولو على مضض ـ كانت تتم بالصلاة على الفقيد في كنيسة وطا الضيعة، ثم تركه فيها حتى منتصف الليل، وحينها يذهب هو مع أربعة شبان أشداء مرافقين التابوت إلى مقره الأخير، حيث يتم الدفن في العتم ومن دون أي صوت أو ضوء ويعود الجميع. ومن المؤكد أن الشبان كانوا يتناوبون على هذه

المأمورية الثقيلة على القلب، بينما كان الكاهن لا يتغير. وقد صبغت هذه المشاوير المزعجة الخطرة صيفاً وشتاءً عينا الأب سمعان بنظرة فولاذية وملامح جامدة لا تعكس مطلقاً عمره أو طيبة قلبه. كما توجته قديساً فوق هرم أعماله الباهرة أستاذاً ومديراً وصديقاً وكاهناً.

ولما كان من بديهيات أي قانون في العالم أن يُنفّذ على واضعيه، كان السؤال في الضيعة هو:

ـ هل سيقبل نائب المطران القيام بهذه المأمورية المزعجة؟

لكن حتى هذا السؤال تبدد بدءاً من ضحى ذلك اليوم، لأن الأجواء في بيروت ازدادت اكفهراراً بين الوحدات العكسرية التابعة للعماد ميشال عون و«القوات اللبنانية». لم يستطع نائب المطران التحرك، لأن أي حرمة في ذلك اليوم كان يمكن أن تنتهك، حتى حرمة رجال الدين الذين ظهرت ميولهم واضحة أثناء فترة وجود العماد في قصر بعبدا.

ورغم ثقل أجواء التحضيرات لهذه الحرب المسيحية ـ المسيحية، كان السؤال في الضيعة يدور حول ماذا يمكنهم أن يفعلوا. كانت الآراء تتجه إلى

جلب أقرب كاهن حتى لو كان غير ماروني ليصلي على الفقيد. وتبلورت الآراء، وذهب أحدهم إلى أقرب ضيعة، وأتى بالكاهن الذي صلّى على زميله وأخذ بخاطر أخته الوحيدة والحاضرين في الكنيسة، ثم استأذن لأن المعارك فعلاً قد بدأت في بيروت، ولا بد أن تطال جميع المناطق مع تقدم الليل.

مكث في الكنيسة حوالى عشرين شاباً مع جثمان صديقهم. وكان الجو كئيباً فعلاً وأضواء الشموع المتراقصة ولسعة برد أول شباط تزيد الأمور رمادية وشجناً.

كان عمر الليل في ذلك اليوم قد أصبح ساعتين، لكنهما مرّتا كدهرٍ على المنتظرين انتصافه وآذانهم على الراديو الترانزستور المرافق، تتابع أخبار الحرب القادمة على الأراضي المحررة. وقطع أحد الشبان صمت الجالسين وأصوات الأبواق المفتوحة على محطات الحرب:

ـ رح ندفن أبونا سمعان بالطريقة إياها.

ـ طبعاً. أخذنا مفتاح مدفنن من اخته وكلنا رح نروح سوا.

ـ الزلمة ما بيستحق هالنهار ولا هالطريقة.

ـ شو منعمل. شنصه هيك.

ـ أكيد في شي طريقة أكرم.

ـ كيف؟!

ـ بتعتقدو الدروز بيقوصو إذا رحنا عالمدافن بسياراتنا؟

ـ أكيد.

ـ ليكن يا شباب. أنا رح جرّب طريقة، يمكن تضبط ويمكن نصير تنين أموات.

ـ شو بدّك تعمل. إنقبر.. قعود.

خرج الشاب من الكنيسة العتيقة حيث توفي الخوري، وكانت تقع في أعلى مكان في الضيعة، وأقرب نقطة من نقاط المواجهة مع الضيعة الأخرى. ووقف على بعد حوالي ثلاثين متراً وصرخ باتجاه قمة الجبل الأخرى، وسافر الصوت عبر الوادي المظلِم:

ـ يا سامعين الصوت.. ووت.. وت.. ت. الخوري سمعان توفي عابكرا، وبدنا نروح عالمدافن بسياراتنا. تنا.. نا.. نا..!

وجاء الرد بعد نصف دقيقة هادراً من القمة

الأخرى:

ـ ولاه.. ه.. ه.. ه. شـو عـمـتـحـكـي يـا خرفان.. فان.. ان.. ان.. ن.

ـ متل ما قلتلك.. لك.. لك.. ك.. ك.

وساد صمت طويل نسبياً، وجاء الرد بصوت يختلف تماماً عن الأول:

ـ الجراس كانت عابكرا منشان بونا سمعان. عان.. آن.. آن.. ن.

ـ مبلى.. لى.. لى..!

ـ بونا سمعان ديب أبو ضاهر ما غيرو. رو.. رو.. رو.. و

ـ مبلى.. لى.. لى..!

وعاد الصمت مرة أخرى، وشقه الصوت الأخير نفسه:

ـ فليدفن الأب سمعان بسلامٍ.. لامن.. لامن.. من.. ن. ن

حمل الشباب تابوت الأب سمعان من الكنيسة الى سيارة نقل الموتى، وأضاءت السيارة أنوارها، وكذلك السيارات المرافقة لها إلى أن وصل الجميع إلى

المدافن، ووري الأب على أضواء السيارات التي وصلت أولاً، وغيرها ممن وصل لاحقاً من الضيعة بعد انتشار الخبر، وكانت التراتيل الجنائزية تتردد بين الأودية وقمم الجبال مع سكون الليل، وكأنها تراتيل عزم وقوة تخرج من حناجر الشبان الذين فاجأهم الموقف العجيب المهيب.

القناص

أول مرة عَبَرَ فيها جسر «الرينغ» كانت بعد ثلاث سنوات من انتهاء الحروب اللبنانية، وبسبب بدء عمله في المنطقة التي لم يذهب إليها من قبل. وقد رافق سائق مكتب متعهد البناء إلى موقع العمل، ليتعرف على الطريق لأول مرة، بعدما كان اعترض بشدة على تعيينه ملاحظ عمال في منطقة يجهلها، وارتفعت عقيرة المتعهد بتهديده:

ـ إياك أن تقول «شرقية» أو «غربية» مرة أخرى. انتهت الحرب.

ـ أعترض لأنني لا أعرف المنطقة ولا الطريق إليها.

ـ إعرفها فيزول اعتراضك، أو إترك العمل الآن.

وافق على العمل «هناك» لأن المكتب الذي يعمل

فيه كان المكان الوحيد الذي قبله ودربه ورقاه، بعد انتهاء الحروب وتسريح الميليشيات. لم يشأ الالتحاق بالجيش لسبب خاص، كما تهرّب منه معظم من كان يعرفهم بعدما كانوا يسعون إلى كسب مودته في زمان الحرب. وقفوا وراء حجة كأنهم لقنّوها إلى بعضهم بعضاً. رغم أنهم غير متعارفين: «الأيام صعبة والشغل قليل».

في اللحظات التي أصبحت فيها السيارة فوق جسر «الرينغ» أحس بقشعريرة تضرب جسده وهو يرى الجسر والبنايات القريبة منه رؤية بالعين المجردة، بعدما رآها لمدة سنوات خلت بالمنظار المثبت فوق بندقيته المرعبة.

وبعد أن تعرّف على مكان ورشة البناء التي سيعمل فيها، لم يدرِ لماذا أحس بالخجل وهو يعبر الجسر عائداً الى المكتب، الذي جرّب الاستفسار فيه عن طريق آخر للوصول الى ورشته، فعرف أن باقي الطرق بعيدة نسبياً، وإذا سلكها سيصل متأخراً إلى عمله المفترض أن يكون فيه عند السادسة والنصف صباحاً. لذلك قرر سلوك طريق جسر «الرينغ» ريثما يشتري سيارة يستطيع التحرك بواسطتها أسرع من «السرفيسات».

صحيح أن القشعريرة زالت بعد عدة أيام من الذهاب والعودة، وأن الخجل قد خفت حدته كثيراً، خصوصاً بعد الاحتكاك اليومي بالناس «هناك» واكتشافه إنهم يشبهونه في أمور كثيرة أبرزها الاتكال على اليد العاملةِ السورية في ورش البناء، والكذب، وعدم احترام المواعيد. كذلك تبخرت الدهشة التي كانت تصيبه عندما كان يرى البنايتين اللتين كانتا «مقر» أعماله سابقاً عن بعد.

كان يتجنب أمراً واحداً هو النظر إلى المنطقة المتاخمة للجسر التي كانت تعتبر مسرح عملياته فعلاً. وكانت الحشرية الإنسانية تدفعه وتحثه لزيارتها. وذات يوم أثناء العودة، سمع نفسه يطلب من سائق «السرفيس» أن ينزله فيها.

لم يدر لماذا أحس بالرهبة عندما وطأت قدماه الأرض لأول مرة. أحس كأنه يقف على فرشة مائية وليس أرضاً صلبة. عاد إلى ذاكرته صوت انطلاق الرصاصة من «مقر عمله» الموحش، وكيف أنها كانت تشق طريقها في الحي الخالي تقريباً، لتخترق جسد إنسان، أو ترتطم بالحائط وتترك أثراً، أو تكسر زجاجاً إذا كان يتسلى.

نظر إلى كفيّه ثم إلى ثيابه وحذائه، ورغم صلابته الجوانية إنسابت دمعة من عينيه.

ـ ضحكوا علينا جميعاً. من مات ارتاح، ومن سافر خيراً فعل، وبقينا نحن شهود زور.

الفهرس